أطيافُ أحلام

أطيافُ أحلام (يوميات)

ميمونة البلوشية (كاتبة عُمانية)

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022

الآن ناشرون وموزعون

الأردن، عمّان

alaan. publish@gmail. com

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

سلطنة عمان، مسقط

omani- writers@hotmail. com

هاتف: 96824346753+ / 96824346754+

المدير العام: د. باسم الزعبي

لوحة الغلاف: léonard tsuguharu foujita

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مُصنفه ولا يعبّر هذا المصنّف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

رقم الإيداع في سلطنة عمان: (2021/4053)

ISBN: 978- 99969-862- 3- 9

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية الأردنية: (2021/12/6742)

ميمونة البلوشية

أطيافُ أحلام

يوميات طفلة

المقدمة

الاسم: الحرف الأول من اسمي هو أول حرف في هذه الصفحة، الحرف الثاني هو أول حرف من اسم طائر جميل جدا، والحرف الأخير هو أول الحروف العربية، فهل عرفتموني من أكون؟

سأقرب لكم الأمر، اسمي هو اسم حيوان من نوع الظباء، هذا الحيوان ذو سنام مميز على كتفيه، وقرون طويلة مستقيمة، وذيل ينتهي بخصلة شعر، لونه أبيض، وهو يستوطن صحاري شبه الجزيرة العربية.

نعم اسمي: (مها).

الصف: السادس.

العمر: 11 سنة.

الهواية: السباحة.

ترتيبي هو الأخير بين إخوتي.

أمي: سعاد.

أبي: أيمن.

لدي ثلاث أخوات: الكبرى: ذكريات، تدرس في السنة الثالثة في الجامعة، متزوجة ولديها ابنة صغيرة، اسمها آية.

المتوسطة: رباب، في الجامعة، في السنة الأولى.

الصغرى: عائشة، وأدلعها عواشة، في الصف الحادي عشر، تغار مني كثيرا؛ لأني أخذت مكانها في الدلع، بيني وبينها خمس سنوات.

الأمنية: أنشر حلما تقف على أعتابه القنوات التلفزيونية والإخبارية مهللة باسمي.

الحلم: أتفوق على الحياة.

تحذير: ممنوع اللمس.

(الرجاء عدم فتح المذكرة دون إذن مني، ومن يتجرأ على فتحها سيجد العقاب الذي يستحق).

يوم عن ألف يوم

لم أنس أبدا ذلك المساء المُحمّل بكل صنوف الأمل، الذي حملتني فيه والدتي إلى مكتب الدكتورة إيمان، كان يوم الخميس، ركبنا سيارتها (اللكزس) الرصاصية، وأشعة الشمس تتلصص من زجاج السيارة الجانبي، الصيف بالنسبة لي كآبة تهشّم عقلي، فتلك الحرارة التي تكوي جلدي الضعيف تجعلني أشعر بضيق وتعب، والشمس يزداد لهيبها، وكأنها ترسل سياطها لتوجع به الأبدان. أجمل ما في الصيف سفرنا بصحبة أبي إلى إحدى الدول الأوروبية، متعجبة من والدي على الرغم من أمواله الكثيرة لكنّه يبخل علينا، ولا يسافر بنا سوى شهر واحد فقط، وبالتحديد – شهر يوليو غالبا–، هل يكفينا أن نهرب من حر الصيف شهرا واحدا وحسب؟!

لقد ثرثرت كثيرا، ونسيت ما أود كتابته، يقال عني ثرثارة، لكن في الحقيقة لست ثرثارة على قدر ما أنا صامتة ووحيدة، فلا يوجد من أتحدث معه في المنزل، الجميع ينشغل عني بأعماله التافهة، وأظل وحيدة؛ لذلك عندما تسنح لي الفرصة بالتحدث أتحدث دون توقف.

في ذلك اليوم بالذات، ومع الدكتورة إيمان تحدثت قليلا، بل أكثر من القليل بمقدار حفنة، كان يجب ألا تنتهي الجلسة معها، لكن يبدو أنها مشغولة، أو لربما أخبرتها أمي أن تستعجل الحديث معي، آآه لو تجعلني أمي أزورها كل يوم، ليتها أختي وتسكن معي في المنزل نفسه، لخططنا لأشياء جميلة معا. أول مرة أقابلها لكنّ شعورًا رائعًا جذبني ناحيتها، عيناها لطيفتان، حدسي أخبرني

من الوهلة الأولى أنها طيبة القلب، ابتسامتها جميلة جدا ومشرقة، حاولت تقليد ابتسامتها الساحرة كثيرا وأنا أقف على المرآة، لكن لم أتقنها بعد، لم أكن أرغب في الذهاب معها، عندما أخبرتني أمي أننا سنذهب لدكتورة تكتشف شخصيتي وتحللها شعرت أن الأمر لن يكون ممتعا، فجميع الدكاترة (نفسيون)، ولا أتوقع أن هناك من يفهم شخصيتي ويستطيع الولوج إلى مكامنها، حتى أمي وهي أمي لا تستطيع فهمي، ركبت السيارة على مضضٍ، يجتاحني غضب، الجو الحار يجعلني أكثر غضبا، فلا أطيق تلك الحرارة بتاتا.

أبي يقول: «أنت شخصية متمردة».

ماذا يعني التمرد؟ هل عدم الخضوع لتلك القوانين البالية في المنزل يعد تمردا؟

أنا فقط طموحة، أريد أن أَرحل لمكان ما، أرغب بشدة أن يعرفني العالم، ويتباهى الجميع بصداقتي ومعرفتي، ثم لا أحب أن يتحكم أحدهم بحركاتي وسكناتي، ساعات يومي خاصة بي وحدي.

بعد أن لبست والدتي حزام الأمان التفتت ناحيتي، وقبل أن تتفوه بحرف قلت لها عاقدة حواجبي: «أرجوك لا تتحدثي معي، كيلا أصرخ في وجهك وتغضبين، دعينا نصل لمبتغانا بسلام».

رغم ذلك انفعلت أمي كثيرا، وبدأت تصرخ وتعاتبني؛ لأني لا أحترمها على حد قولها، وأتنمر عليها. هل يعقل أن يكون هذا تنمرًا؟ لست في مزاج لهذه الأسطوانة، ورغم تنبيهي لها إلا أنها لم تكن تفهمني أو تشعر بي، لا أريد أن أخوض في نقاش معها؛ كيلا يشتدّ غضبي، ثم تبدأ هي بالموال الذي

اعتادت عليه، إن تحدثتُ غضبَت، وإن سكتُّ غضبَتْ، هل يعقل أن تكون كل الأمهات كأمي؟ لا أعتقد ذلك، فعمتي ليست كأمي، لا أقصد عمتي أخت والدي، بل عمتي زوجة عمي، قليلة الغضب والصراخ، أحبها كثيرا، وأعشق الذهاب معها، لا تغضب مني أبدا، وأمي تمنعني من الذهاب معها، وترفض أن أشاركها الحديث، دائما تقول عنها بأنها لا تفهم فنون التعامل مع الأطفال، ولديها الكثير من الأخلاقيات السيئة، رغم ذلك أشعر أني أتناغم مع شخصيتها جيدا، هل هذا يعني أني سيئة الأخلاق والطباع؟

لا أعتقد، بل أنا محبوبة مثل عمتي تماما، فقط أمي هي الوحيدة التي لا تحب طباعنا، دائما أبحث عن السبب وأحاول كشفه، هي لا تريدني أن أقلدها، وأذهب معها، أنا فطنة جدا، رغم صغر سني، ولكني أفهم الأمور وأستوعبها، أمي تكره عمتي؛ لأنها تتحدث كثيرا عن الناس بذكر أسمائهم، وهي لا تحب أن تتحدث عن أحد، وحين تتحدث عن أحدهم لا تذكر اسمه، لكنني ذكية، وأعرف الشخص الذي تقصده أمي، حتى لو لم تذكر اسمه، ذات يوم كانت تتحدث مع والدي، وتقول له: «لا أعرف لماذا هي حقودة هكذا؟».

سألتها:

- من؟

تجيب:

- فتاة لا تعرفينها، تحقد على أخواتها كثيرا.

كنت أعلم يقينا أنها تقصدني، هي تراني حقودة، وأختي عواشة تودّ قتلي، لماذا ينبذونني هكذا؟ لا علم لي، كل يوم قبل نومي تتهادى صورة عواشة

أختي وهي تستعد لقتلي، فلا يغيب عن ذهني أبدا ذلك اليوم، عندما حاولت دفعي إلى ماء البحر كي أغرق، حاولت الفرار منها فأنزلَتْ رأسي بكل قوتها في الماء، لم أستطع التنفس، ثم عندما انتبهت لها أمي بدأت بالضحك؛ لتوهم أمي بأنها تمازحني، أخبرت الدكتورة إيمان بكل ذلك، فهمتني جيدا، كما أفهم نفسي، كم أشرقت روحي نورا حين أخبرتني أنها تتمنى أن تنجب بنتا تشبهني، فهي تحبني كثيرا، وتحب شخصيتي القوية، وكأن الروح اندفعت بقوة إلى جسدي واندفع معها بريق الحياة في عيني! منذ ذلك اليوم تغيرت كثيرا. أخبرتني الدكتورة إيمان أن أكتب مذكراتي اليومية، وأكتب كل ما يسعدني ويغضبني. خائفة أن تكتشف العائلة الأمر، وتبدأ بتفتيش المذكرة وقراءتها، لكن نبهتني الدكتورة ألا أخبر أحدا بالأمر، وأن أخبئها في مكان سري، وبذلك لن يعرف أحدهم عنها. وبالفعل بدأت بذلك، كان عظيما أن تتوغل الدكتورة إيمان في شخصيتي وتبحث عن الجوانب المضيئة وتلك الأخرى المظلمة، ثم تحاول أن تنبهني لتغيير الجانب المظلم كما فعلت حين طلبت مني التخلص من بعض الصفات التي أحملها؛ كي أكون شخصا ناجحا وملهما في المستقبل. كم تمنيت دائما أن أصبح مشهورة! هي قررت مساعدتي، لا أريد أن أصبح مشهورة تافهة خاوية المحتوى، أريد أن أصبح كالمشاهير الأجانب. تخالفني أمي وِجهة النظر هذه، فتقول دائما المشاهير الأجانب تختلف عاداتهم عنا، ويجب ألا أقتدي بهم، لكني أحب ما يعرضونه، بخلاف العرب الذين يشتهرون بإعلانات الأكل والمطاعم والملابس، بل يشتهرون بفراغ عقولهم ومحتواهم، أمي لا يعجبها حديثي هذا، تعتقد بذلك أني أكره عاداتنا وتقاليدنا

رغم أن أغلب المشاهير لا يمثلون تلك العادات والتقاليد، هي تشير إلى أن هناك جملة من المشاهير العرب يحملون رسالة قيمة، وأنا لا أراهم، ولا أسمع عنهم حتى. ورغم ذلك اتفقت مع هذا الرأي الدكتورة إيمان، وأخبرتني بالفعل أن هناك الكثير من الشخصيات العربية التي يشار لها بالبنان، ففي الحقيقة هم موجودون وبكثرة، ومن يريد التعرف عليهم سيجدهم، ومن يهتم بكماليات الحياة والرفاهية سيجد النوع الآخر من المشاهير. كشفت لي وقتها نماذج منهم، وقالت لي سأصبح يوما ما مثلهم، ويجب عليّ أن أغير من نفسي منذ الآن حتى أصبح أفضل شخصية عربية ملهمة في المستقبل. بدأت كلماتها تترسح في عقلي، وتضرب على أوتار قلبي؛ لذا اقتنعت بالفعل أن أبدا بالتغيير، وساعدتني هي على وضع خطة وبرنامج يومي، فقد أخبرتني أن الخطة هي المسار الذي سيوصلني بلا منازع ولا شتات إلى هدفي مباشرة، ذكّرني هذا عندما نسافر، كيف يرسم لنا والدي خطة بكل تفاصيلها، منذ خروجنا من المنزل وحتى رجوعنا إليه، لذلك تكون الرحلة ممتعة وجميلة، وبأقل التكاليف. كان يشعر بالفخر بذاته، ويقول دائما: «أرأيتم كيف خططت جيدا؛ كي تستمتعوا دون أدنى شعور بتعب السفر، ووهن الترحال، وبأقل التكاليف؟».

الخطة هي السعي الأولي لرسم مسار أهدافنا، وخطتي بدايتها السعي للنهوض بإيجابياتي، وأن أتخلص أو أقلص السلبيات التي قد تعترض طريق نجاحي، فكل إنسان يحمل صفات سلبية، والشاطر هو من يدركها ويتعلم كيف يقلص وجودها في نفسه.

هل كان يجب ضربي؟

يطاردني الشعور بالوحدة رغم إرادتي، ودون دعوة مني، لا أدري كيف أتناسى مضي الوقت وهيمنة الفراغ. ذهبت لغرفة رباب، ووجدتها هي وعائشة تتحدثان، وعندما دخلت معهن انقطع حديثهما مباشرة، وبدأت كل واحدة تلتفت للأخرى، أدركت مباشرة أنهما غاضبتان من وجودي بينهما، بأي وجه ألومهما وقد فصلت بيننا السنون؟ وبأي حجة أقطع حديثهما وأنا الطفلة المدللة التي كبرت في لحظة، ونبت لها لسان، ونمت لها أذنان؟

صرخت عائشة: «هيا اخرجي فورا من الغرفة».

قلت لها: «من يسمعكما يظن أنّ الجلسة تستحق كل هذا أساسا!».

غضبت رباب، وقفزت من مكانها، وبدأت تدفعني خارج الغرفة.

امتلأت حنقا وامتعاضا، ولكني طويتهما في الأعماق ولففتهما مع وحدتي. هل يمكن للوحدة أن تكون بابا للعبور إلى التمرد وقطارًا يدفعنا نحو الفناء؟ اللامعقول حقا أن تلك الوحدة تصنعها عائلتي في طريقي، لا أعلم لماذا لا يسمحون لي بالجلوس معهم، هل لديهم خوف أن أنقل الكلام؟ لكني قسما لن أنقله، هل يتحدثون عن الحب؟ أصبحت كبيرة ويمكنني الجلوس معهم، أعلم أنهم لا يحبونني، ليتني لم أولد في هذا المنزل وبين هذه العائلة! يقال الأخت هي أم ثانية، ولا يخالجني هذا الشعور نهائيا، أرى أنهم جميعا أعدائي، لا أدري هل سوء ظني يصورهم لي بمظهر الكاره لسعادتي. من الطبيعي هذا الشعور ولا أعتقده سوء ظن، سئمت من الجلوس وحيدة، وعَتى على قلبي ترهات الحديث النفسي، ذهبت وسحبت هاتف والدي، وارتميت على

الأريكة، فتحت اليوتيوب، ما هي إلا دقائق حتى جاء والدي وهو يزمجر غضبا لأني حملت هاتفه دون إذنه، أخبرته أني مللت وسأكمل فقط المقطع الذي أريد وأرجعه، لكنه رفض:

- لن تكملي.

حلفت أنه بقي القليل، لماذا لا يدعني كي أكمله، أريد أن أعرف النهاية، ما الذي سيحدث؟ رفضت إعطاءه، وهو يصرخ أخبرته أمهلني دقائق، أكمل المقطع وأرجع لك الهاتف، لم يكن يستمع لي، هو يصرخ غضبا لأني أعانده، ولكنني لا أعانده بل هو من يعاندني، بدأت أبكي وأصرخ، فالفضول يرقص بداخلي كي أعرف ما الذي سيحدث. هددني أنه يجب علي الصمت، وزدت في بكائي حينها، ضربني بيده بكل قوته على ظهري، هرولت لغرفتي. أنا لا أبكي على ضربه لي بقدر بكائي على عزلتي، كيف سأقتل الوحدة التي بدأت بقتلي؟ الجميع بات مشغولا عني، مرارة الوحدة سكين ذابحة، لا أحد يتحدث معي، ولا يفهمني أحد، ينتابني شعور بالهروب من المنزل، لكن أين سأذهب؟

أصبح الكتمان ملازما لي وعادة متأصلة طبعت على صدري، في ظل عالم لا يفهمني أشعر بأني شعلة يخفت بريقها ويندثر توهجها، كم ينسى الكبار أننا بقلوب رقيقة! وكم ينسى الكبار أننا بأيادٍ لطيفة نحتاج من يمسك بها كيلا تخذل وتغلق كفها للعدم!

الوحدة كالهشيم، نار تلعب بعقلي، كل الجدران من حولي تضيق؛ لتحطم قلبي، من يفهم أني أحمل روحا تحتاج إلى المزيد من الاحتواء.

وجبة سريعة

قد تسوء حالتك النفسية لمجرد موقف واحد يهزّ راحتك ليوم كامل، اليوم أبدو في قمة غضبي، ليتني أستطيع تنفيس غضبي في وجه المدير الحانق، (لم يرحمنا، ولم يتركنا في سبيل الرحمن) سمعت أمي ذات يوم تقول هذه العبارة، وأرددها الآن لأني أشعر أنها تنطبق على هذا المدير القاسي. كم يشمئز قلبي حين أرى أحدهم وقد بلغ من العمر ما بلغ، لا يتقن فنون التعامل الراقي! لقد طلبنا وجبات سريعة من ماكدونالدز، أنا وصديقتي دانة ورزان، وعندما تسلمنا الطلب أفشى أحدهم سرا للمدير، فجاء فورا وعيناه تشتاطان غضبا بوجه مكفهر، وقف أمامنا وجسده الممتلئ يترنح كقطعة هلام غير جامدة، صرخ في وجوهنا، وعينه لا تكاد تبتعد بنظرها عن أكياس الطعام، وكل واحدة منا تنظر إلى الأخرى، ثم سكت برهة يراقب ردات فعلنا. وحين اتّضح له ألا وجود لعلامات الخوف أو الندم في ملامحنا، أخذ الوجبات منّا، ورحل مهددًا بأنه سيتصل بأولياء أمورنا، كل ذلك لا يهمّ، ما يهمّ أني غاضبة منّه جدا لأنه أكل الوجبات هو وزملاؤه دون أن يرجع نقودنا، جلسنا طوال اليوم دون طعام، ونحن جائعات، صحيح أننا أخطأنا حين قررنا الطلب من خارج المدرسة، وكان تهورا من رزان أن تحضر هاتفها للمدرسة، لكن لا يحق له أن يأكل طعامنا دون إرجاع النقود إلينا، أو تعويضنا بوجبة من

المقصف المدرسي، ثم لا ضير أن يسمح لنا أن نطلب وجبة من خارج المدرسة، على الأقل مرة واحدة في الأسبوع، فقد سئمنا أكل المقصف هذا، هي وجبة غير صحية كما يقول المدير، لكنها تسدّ جوعنا أكثر من الشيبسات والحلويات الموجودة في المقصف المدرسي، وما يوجد في مقصف المدرسة هو أيضا غير صحي، ويحتوي على سعرات حرارية عالية دون فائدة، والأكثر إشكالية كل هذه الوجبات لا تشبعنا، وكما يقول أبي تعتبر قرمشيات خفيفة لا تسمن ولا تغني من جوع. حالها أسوأ من الوجبات السريعة كما أراها أنا، لو أنهم يوفرون في المقصف المدرسي وجبات صحية، ومشبعة في الوقت نفسه، لما اضطررنا للطلب من ماكدونالدز.

صحيح نسيت نقطة مهمة حدثت اليوم، أعلم جيدا أنّ هناك الكثيرين ممن يملكون التهم الباطلة ضدك، ولكن لم أكن أتصور أبدا أن زميلتي رزان أحدهم، عندما سأل المدير عن الهاتف، أخبرته رزان مباشرة دون تردد أني من طلب منها أن تحضر الهاتف كي نطلب من المطعم. لم يكن الأمر كذلك بتاتا، بل إنها كانت تخبرني قبل الحادثة بيوم أنها صورت حفل ميلادها الذي كان جميلا جدا ومميزا، فأصابني الشوق لرؤية الصور فسألتها أن تسمح لنا بمشاهدة الصور وتحضرها في اليوم التالي. لم تخبرني أنّ الصور في هاتفها، وأنّها ستحضر هاتفها، كان الاتفاق أن تحضر الصور لا الهاتف، ثم عندما رأيت الهاتف فكرت لحظتها أن نطلب الوجبة؛ لأنني في حقيقة الأمر لم أتناول وجبة الإفطار، وكانت لدينا حصة

رياضة، وكل ما في المقصف المدرسي لن ينسيني جوعي. توقعت الأمر سينتهي بتذكرنا هذه التجربة الفريدة، لولا هذا المدير المتزمّت، الأمر المزعج أني اعتدت أن أسمع من عائلتي دائما أنّي «أجلب المشاكل»، رغم أنّي أحاول جاهدة ألا أصنع الفوضى، لكنّ المدير لديه ولع شديد في بتصيّد الهفوات، ويجعل منها مشكلة يستدعي على إثرها والدي الذي هدّدني بنقلي إلى مدرسة أخرى، وأنا لا أرغب في الانتقال عن صديقاتي، هذه المدرسة وجدت فيها صديقات رائعات، ولا أضمن أن أجد في المدرسة الأخرى مثلهنّ، وكأنّي في دوامة من الرّياح، تهيج بحجارة من لهب، لا أعرف أين المستقرّ، وليس لي من سبيل.

أصبحت أمًّا

سعادتي لا توصف، شحذت حواسي بشعور رائع، أن تكوني أمًّا وأنت لا تزالين في الحادية عشرة من عمرك يجعلك تمضين قدما في الحياة، أختي ذكريات لديها امتحان مهمّ، سهرت طوال الليل لتذاكر وابنتها آية نامت معي، بدلّتُ لها ملابسها وأعطيتُها حليبها، ثم لاعبتها قليلا ووضعتها في حضني، بدأت تنظر إلى عيني وهي تبتسم، يبدو أنها اكتشفت أنّ عينيّ تشبهان تماما عينيّ والدتها الغائرتين، بادلتها الابتسامة وانصهرت مع نظراتها، بدأت تنعس رويدا رويدا، وأنا أغني لها أغنيتي المفضلة (يا الله آية تنام، يا الله يجيها النوم، يا الله تحب الصلاة، يا الله تحب الصوم...).

تغمض عينيها بهدوء، ثم تعود تفتحهما حتى غفت في عالم الأحلام، وجعلتني أسبح في خيالاتي إلى عالم الأمومة الجميل، سأكون أمًّا استثنائية، سأكون صديقة لأطفالي، لن أصرخ في وجوههم أبدا، وعندما يخطئون سأعاتبهم بحب، سأفهمهم خطأهم؛ لذلك أنا أكتب المذكرات، حتى أكون أقل غضبا، كتابة المذكرات تساعدني كي أفرغ الطاقة السلبية التي تحتضنها جوارحي، وتساعدني كي تلتهم الأوراق دماء الغضب من شرياني. أخبرتني الدكتورة إيمان أنّ الغضب طاقة نستطيع التحكم بها وتحويلها إلى شكل آخر مفيد، والكتابة وسيلة من وسائل تحويل

الغضب، من طاقة سلبية إلى طاقة إيجابية وبالفعل منذ بدأت كتابة هذه المذكرات أصبحت أكثر حلما واتّزانا، وهي خطوة جيدة تعلمتها كي تساعدني أن أصبح مثالية.

هناك الكثير من الطرق التي تعلمتها كي أقلل من نوبات الغضب التي تعتريني، منها الاستغفار والوضوء، أما الكتابة فهي عالم آخر، هي تريحني حتى لو لم أكن غاضبة.

درجات الاختبار القصير

هل يعقل أنّ الدروب العظيمة تبحث عن أصحابها لذلك لا أجدني فيها؟ أشعر بالاختناق، لا أستطيع تغيير شخصيتي، الجميع لا يفهمني، كل يوم تلقنني الحياة دروسا تعيدني إلى الأسى، رغم أنّي أحبّ يوم الثلاثاء؛ لأنّه يقربني كثيرا للخميس، لكنّه هذه المرة كان سيئا، عدت من المدرسة، وقبل تغيير ملابسي ناولت أمي التي جاءت من عملها مبكرا درجات الاختبار القصير، حصلت على 2 من 5، أعطيتها وهممت بالرحيل لولا أن استوقفني صراخها الطافح بالغضب، التفتّ إليها دون اكتراث، وبدأت تلقي تعاويذها المسمومة لمسمعي: «لا تفلحين سوى بالدلع والعناد، أمّا في الدراسة فلا تظهرين شطارتك، تستغلين ذكاءك في أمور لا طائل منها».

هو كلامها المعتاد الذي لا تغيّره في كل مواقف غضبها منّي. في يوم الاختبار كنت أرغب بشدة في دخول دورة المياه، لكنّ المعلمة لم تسمح لي، تعتقد أنّي أودّ الغشّ أو الهروب، فلم أستطع التركيز في الإجابة. الاختياري أجبت عليه، أمّا بالنّسبة للأسئلة المقالية فتركتها، وركضت مسرعة لدورة المياه، يهون عليّ حصولي على درجة ناقصة، عوضًا عن (عملها) في ملابسي، لا أستطيع حتى تخيّل موقفي حينها، كانت ستلاحقني السخرية من الجميع، ولن ينسوا الموقف. أن أنجو بسمعتي،

هو الأهم، والدرجات سأعوضها بإذن الله، ما يزعجني دائما أنّهم لا يستمعون لي مباشرة، دائما يثيرون غضبي بمشاجرتهم، وهذا غالبًا ما يجعلني أغضب وأصرخ، وبعدها يقال عني: «أمّ لسان طويل»، ظللت واقفة صامتة دون أن أنبس بكلمة، فهي لا تسألني عن السبب، هي تصدمني بتوقع السبب من وجهة نظرها وحسب، لذلك لا داعي للتبرير والحديث.

صحيح أنّني لا أحبّ المذاكرة، ولو كنت أذاكر لأصبحت أكثر تميزًا، لكنّني ذكية وأفهم جيدًا شرح الأساتذة، وغالبًا أشعر بأنّي لا أحتاج إلى استرجاع دروسي، فمن حقي اللعب والمرح واستغلال وقتي في أمور أخرى غير الدراسة، وسوء درجاتي ليس لأنّني لا أستغلّ ذكائي في الدراسة، بل لأنّ أمرًا طارئًا صادفني، وهم لا يؤمنون بالطوارئ التي تحدث للأطفال، وكأنّ الطوارئ فقط تخصّ الكبار وحدهم.

بيت العائلة

بيت جدي هو الحضن الدافئ بعد عناء ومشقة الأيام، هو المكان الذي يبعث الأمان والسعادة، المكان الذي أجد فيه ذاتي وشخصيتي، بل عدم ذهابي هو ثورة تستدعي معها كل عنفوان غضبي، خدعني والدي مرّة أخرى، ولم يحملني معه لبيت جدي، طلب منّي الذهاب للاستحمام ثم غادر. لا أمرّ من عدم ذهابي سوى خداعه لي الذي يبقي قلبًا حاملًا بين دفتيه السخط واليأس، الخداع ذنب لا يغتفر في قاموسي، ولا تطيقه جوارحي، فالألم حينها لا يقتصر على حالة الرفض التي أشعر بها، بل يتعدّى إلى اختلال مفاهيم الثقة، ونشوب صراع، ودوامة بين ما أفقه وما أتعلمه منهم عن ذمامة الكذب، وبين ما أراه واقعًا. بكيت كثيرًا، وجاءت أختي رباب ولطمتني على رأسي؛ لأنّ صوتي مزعج كسيارة الإسعاف على حدّ قولها، وهي تريد المذاكرة. أغاظتني أكثر حين قالت إنها هي من طلبت من والدي أن يرحل عنّي، كنت سأركلها بكلّ قوّتي لولا أن أمسكت بي والدتي. لا أستطيع وصف شعوري لحظتها، يحسبون أني حجر لا يكسر، ولكني أنكسر كالزجاج، ويصعب إصلاحي. لا يسمحون لي بالذهاب إلى هناك، فقط إذا ذهبوا جميعهم، أمّا بمفردي أو مع والدي فلا يُسمَح لي، قوانين المنزل أتعبتني كثيرا، أعلم أنهم يخافون عليّ، لكني كبيرة بما يكفي كي أحسن التصرف، ثم إنّه لا يوجد من أجلس معه أو

ألعب معه في المنزل، حتى الأشباح تختفي من منزلنا؛ لأنّ والدتي تقوم بتشغيل المذياع على صوت القرآن الكريم في أرجاء المنزل في كل وقت، تبدو لي مساحة البيت على وسعها كسجن لا مفرّ منه، يحكمونني بالتصرفات والقواعد التي لا أرى منها منفعة سوى قتل الحرية ووأد السعادة، هل يعقل أن كل من في المنزل لا يشعرون بمصادرة الحرية سواي؟!

هناك في بيت جدي توجد حنان وسارة في مثل سنّي، نقوم بتحديات رائعة، ونلعب معا، وأحيانا نتصور كمشاهير مواقع التواصل الاجتماعي، ونقوم بتقليدهم، حقًّا اشتقت للذهاب إلى هناك، لا ينفكّ يتنازعني اليأس المستقر في الأعماق، ويترامى إلى خاطري الهروب إلى مكان ما.

أمي تعاندني

لا أنكر حظي من دفء أمي، ولكن لا أنسى أيضا بأنني أكثر حظًا من صراخها ونزاعها. منذ عودتنا من مركز الدكتورة إيمان، بدأت تصرفات أمي تتغير اتجاهي، أصبحت تمسك أعصابها على هفواتي أكثر، ليت الدكتورة إيمان تجلس مع عواشة أيضا حتى تصبح طيبة، لكن لا أتوقع أن هذه الغيورة من الممكن أن تتغير، سأحاول إقناع أمي لتأخذها معنا في المرة المقبلة. عموما ليس هذا الموضوع الذي أقلقني اليوم، طلبت من أمي أن أصبغ شعري مثل المغنية الأجنبية أريانا، لكنها رفضت بشدّة، رغم أنها وعدتني بعد كتابة فروضي المدرسية بتنفيذ طلبي، وكان طلبي أن أصبغ شعري باللون الكستنائي، لكنّها رفضت، لا أعلم السبب، هي تحب معاندتي دائما، بدأت أصرخ غاضبة، فاليوم لا مجال لتمالك أعصابي، فأكثر ما يجعلني عصبيةً المزاج أن يعدني أحدهم بأمر ثم لا يفي به. ذات يوم حكت لي قصة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكيف كان يلقب بالصادق الأمين، حتى قبل أن يبلغ بالدعوة، واليوم هي لا تتذكر القصة، ولا تقتدي به، دخلت غرفتي غاضبة، وغدا لن أنفذ مطالبها بتاتًا، وسأتصل بالدكتورة إيمان وأخبرها بأني لن أكفّ عن عنادي؛ لأن والدتي تصرّ على عنادها معي، هي الخيانة بحدّ ذاتها، كيف لهم أن يعِدونا بشيء وهم لا يتحملون مسؤولية وعودهم؟

أسأل نفسي مرارا عن هذه الأيام العصيبة التي لم تشأ أن تنتهي، وإن كان هناك ثمة نور من الممكن أن يضيء عتمة الليالي التي تمر عليّ.

سوء الفهم

الليلة الماضية أغرقني التفكير في مطبات الحياة المتتالية التي لا تدع لي مجالًا كي أكون أكثر ثباتا، وكأنّ الحقيقة المرة لتوقفي تندفع مرة واحدة في بلعومي. منذ أن نهضت في هذا الصباح، أرسلت رسالة للدكتورة إيمان عن موقف البارحة، وكيف أن أمي وعدتني لكنها أخلفت وعدها، لا علم لي بالحوار الذي حدث بين أمي والدكتورة إيمان، لكن جاءتني أمي معتذرة، وأخبرتني أنها تحبني كثيرا ولا تريد أن يتشوه شعري الجميل بالصبغ، أخبرتني أنها ستصبغ شعري يوما ما، لكن ليس اليوم، فهي غضبت عليّ؛ لأنها عندما كانت في سنّي صبغت شعرها، وبدأ يتساقط، ويبهت ويتقصف؛ فهي كانت ما تزال في سن النمو، وما تزال بصيلات الشعر تتقوى، ليتها أفهمتني بالأمس أنها لم تفِ بوعدها لأن الأمر كان لصالحي، وليتها شرحت لي أنّي في سن النمو، ولا يمكن صبغ شعري في هذه الفترة حتى يتقوى ويصبح أكثر مقاومة للتغيرات التي أود أن أحدثها له. يبدو أن الدكتورة إيمان أصابت حين قالت: «إنّ الأمهات لا يرفضنّ أمرا إلا لمصلحتنا، مثلما يفعل الله تمامًا، قد يؤخر لنا حاجة لأنّ فيها ضررا علينا، وقد يقدم لنا خيرا لا نرغب فيه لمنفعتنا».

شجار كارثي

قد لا تكون أفعالنا صائبة، ولكننا لا نقصد الخطأ، تشاجرت أمي معي اليوم؛ لأنّي لم أصلِّ الفجر، لقد نمت متأخرة جدا؛ لذلك لم أستطع الاستيقاظ لصلاة الفجر، أتعلمون ما تعنيه إجازة نهاية الأسبوع؟ تعني التجرّد من كل قوانين أيام الأسبوع، هي الفسحة التي أنتظرها بفارغ صبري، استراحة محارب بعد طول نضال وجهاد؛ لذا قررت مشاهدة فيلم اندمجت فيه كثيرا، يتحدث عن طفلين قرّرا الهجرة ظنًّا منهما أنّ والدهما يود بيعهما، تحمّست له كثيرا، وشاهدته حتى النهاية، لذلك نمت في الساعة الثانية فجرا، وعندما أيقظتني أمّي لصلاة الفجر لم أسمعها، هي تقول بأنّي أقول لها حسنًا وأعود للنوم، لكنّي لم أشعر أبدا أنّ أحدهم أيقظني للصلاة، ثم بدأ الموال المعتاد، «اليوم لم تصلي الفجر، وبالأمس أخرتِ صلاة المغرب»، أعيد وأكرر لها أنّي لم أتعمّد تأخيرها، بل كنت أنتظر عودتها من بيت جدتي حتى تذكّرني بالتشهد، فغالبا لا أتذكره، هو خطؤها هي أن تأخّرت عليّ، لا خطئي أبدا، أعلم جيدا أنّ الصلاة تهذّبني كما يقول أبي دائما، ولكني أفضّل ألا أصلي على أن أصلي صلاة ناقصة. قرّرت والدتي معاقبتي وأخذت منّي جهاز «التابلت» في هذه الإجازة الأسبوعية. كان محزنًا للغاية، فلا أجد ما ألهو به، أخواتي يجلسن بمفردهن، ولا يسمحن لي بمشاركتهنّ الحديث، يعتبرنني صغيرة، وأمي مع والدي ينهيان ما تبقّى لهما من مشاوير، وأجلس وحيدة بين جدران أربعة، أيعقل أن تعاقبني

والدتي بهذه الطريقة على شيء لم يكن لي ذنب فيه؟ فالنوم سلطان لا غالب له، أيّ زمن هو ذا الذي أعيشه؟ ألا تكفي تلك الفروض المدرسية التي أُلزم بها؟

ليتني أمتلك عصا الساحرة التي جهّزت عربة سندريلا لتذهب للحفل، ليت الأمر يحدث معي واقعًا، لطلبت من الساحرة أن تأخذني بعيدًا عن هذا المنزل، أقسم بأني حينها لن أعود في الساعة 12، سأهرب إلى بيت جدي إلى الأبد، أعلم أنّ صوت صراخي يعبر في المجهول ثم يدفن في طيّ العدم؛ لذا قرّرت أن أصنع كعكة الشوكولاته، وتوجهت للمطبخ. وبعد الانتهاء من التحضير ساعدتني عاملة المنزل كي أضعها في الفرن، وذهبت لتكمل غسيل الملابس، حينها ذهبت فوق سطح المنزل أشاهد الأطفال يلعبون في حديقة المنطقة، والدتي تمنعني من الذهاب للعب معهم لأنّها ترى أنّ هذا المجتمع أصبح مخيفا جدا هذه الأيام، ولا أحد يأمن أحدًا، لذا اكتفيت بمشاهدتهم من بعيد، وقلبي يتراقص شوقًا لمشاركتهم اللعب، أتحمّس حين يمسك أحد، وأنفجر ضاحكة حين يهرب من قبضتهم طفل آخر، يهيأ لي بأني ألعب وأركض بينهم، تتمازج ملامح وجهي بين حسرة وفرح، لم أشعر بتاتا بمرور الوقت إلا عندما صرخت عاملة المنزل، هنا ذهب تفكيري مباشرة إلى الكعكة، نزلت مسرعة، كنت على وشك السقوط على وجهي من السرعة، وصلت والكارثة التي توقعتها بالفعل حدثت، احترقت الكعكة، ضحكت عليّ رباب حتى كادت أن تنفجر

مرارتها، وتشمتت بي عائشة، كان والداي قادمين من الخارج على وجه المصيبة، زمجر والدي:

- متى ستعقلين؟

ثم وجّه نظراته لأمي:

- متى ستكبر ابنتك، وتكفّ عن إثارة المشاكل؟ كلّ هذا بسبب زيادة الدلع، والآن لا نستطيع السيطرة على أفعالها.

لم أرد بكلمة واحدة، فهذا ديدنهم دائما، ذهبت لغرفتي، وأغلقت الباب، وبدأت أكتب: «الآن أنا غاضبة، غاضبة كثيرا، ما الذي فعلته حتى يتحدثوا عنّي بهذه الطريقة؟ هم من يحاولون إغاظتي، وجعلي أغضب دائما، أنا كبيرة جدا، وعقلي يسبق سنّي، لكنهم لا ينظرون إلا لعثراتي التي لا أقصدها، رغم أنهم سببها غالبا. ماذا يريدون أن أفعل، طلبوا منّي ألا أخرج للعب خارج المنزل، جهازي أُخذ مني، وأخواتي أغلقن على أنفسهنّ الغرفة، دائما هذا ما يحدث، وأظلّ وحيدة، وكلّما حاولت أن أغطي وقت فراغي، وأسترق السمع لأفكاري، يقفون في بلعومي. لماذا أبدو سيئة ومختلفة لهم؟ يرونني صغيرة، ولكنّي كبرت، كبرت كثيرا، يجب أن يفهموا ذلك، الجميع يخطئ، كثيرا ما أحرقت أمي الطعام ولم يلقِ عليها أحدهم اللوم، حتى عاملة المنزل قبل أربعةِ أيام أحرقت صينية البطاطس، وقالت لها أمي لا بأس، سنأخذ طعاما من الخارج، لماذا أنا فحسب؟ بدأت أشك في أنّي ابنتهم حقا».

القراءة نجاة

أخبرتني الدكتورة أنّ القراءة كانت صديقتها في يوم من الأيام، وأنيس وحدتها، ومقتل فراغها، وسدادًا لكثير من الاستفهامات التي تواجهها في الحياة. رغم أنّي لا أحب القراءة قررت أن أذهب إلى المكتبة، وأبتاع بعضا من الكتب، لعلها تعوضني عن الوحدة التي أعيشها، فالقراءة أهون عندي من تلك الوحدة التي تلهب راحتي بالكآبة، ناهيك عن تلك الأسئلة التي تدور بعقلي، ولا أجد إجابات تزيلها، أخذت مجموعة من الكتب، اخترتها بموافقة من والدتي، ووضعتها في مكتبتي الصغيرة، لم أقرأها لعدة أيام، حتى جاء اليوم الذي سألتني والدتي: هل صليت الظهر اليوم؟

فأجبتها: نعم.

رغم أنّي لم أصلِّها، لكنّي خفت أن تعاقبني كالسابق، انتابني الضيق وشعور بالعار لأنّي لم أصدق القول، ذهبت إلى غرفتي، وجلست على سريري وأنا حزينة، فمهما يكن لم أعتد الكذب على والدتي، كيف أصلح خطئي؟ لم يكن هدفي الكذب، لكنه الخوف من العقاب، كنت أدرك أنه سيأتي يوم ما وأحافظ فيه على كل الصلوات كما يفعل الجميع في المنزل، لا أعلم متى سيحين لكن حتما سيأتي هذا اليوم، ذهبت لمكتبتي لعلي أنسى الضيق الذي حلّ بي، شدّني من بين الكتب كتاب اشترته لي والدتي عن كيفية الصلاة، عندما تبدأ تمخر في بالك فكرة فأنت تودّ قتلها فورًا بتأييدها

أو نفيها، وهذا الكتاب فرصة للتخلص من تلك الفكرة، فتحت الصفحة تلو الأخرى، كلّ ما كتب كنت أدركه حتى وصلت إلى التشهد، علمت بالفعل أنّ سبب المشكلة هنا، فغالبا لا أصلي لأنّي لا أحفظ التشهد الذي اعتدت أن أكرِّره خلف والدتي، دون تركيز وعناية، كنت لا أصلي إلا مع والدتي، حتى تردد التشهد بصوت خافت، وأكرره خلفها، كتبت التشهد في صفحة بيضاء، وعلقته في باب الغرفة، وبدأت أردّده بين فينة وأخرى، وكلما سنحت لي الفرصة أعيد قراءته بتركيز حتى حفظته، في هذا العالم نحن ننتظر أمرا من السماء؛ كي تستقيم حياتنا، شعرت أنّ الأمر جاءني من السماء اليوم، أنا أعلم جيدا أنّ الصلاة هي مصدر السكينة والراحة والتوفيق، بتركها اضطررت أن أكذب، وبتركها عوقبت، وبتركها احترقت الكعكة، إذن توفيقي مع عائلتي مرتبط بصلاتي، لا بدّ من الحفاظ عليها، شكرا لك دكتورة إيمان، بالفعل القراءة حياة، القراءة جعلتني أعتمد على ذاتي، يبدو أنّني من اليوم بدأت أصبح ناضجة، انتظر يا أبي، ستراني كبيرة قريبا.

عواشة تكرهني

جذبت انتباهي عواشة وهي تجلس في صالة الجلوس، تأكل النوتيلا، ذهبت مسرعة، وجلست بقربها، وطلبت منها إعطائي ملعقة نوتيلا لكنها فورا رفضت قائلة: هل تريدين أن تصبحي فيلًا؟

وزني قد بدأ في الازدياد؛ لذا غضبت منها أيّما غضب لكني تمالكت نفسي ولم أجبها وهممت بالمغادرة، إلا أنّها صرخت قائلة وهي تضحك بخبث: «أرى لسانك قد انقطع في أواخر الأيام، أخبريني: من أكل لسانك؟».

انهالت قطرات الغضب، تتصبب على جبيني، وبين خلايا قلبي، أشحت بجسدي نحوها، وسألتها:

- لماذا تكرهينني؟

ردّت فورًا بأنها لا تهتم بأمري كي تكرهني، ولكن من الطبيعي أن نكشّ الذباب والحشرات من أمام أنفنا. هنا لم أعد أتحمّل، كنت أودّ المغادرة لأفرغ غضبي في مذكراتي، لكنّها لم تدعني وشأني، ذهبت نحوها كثور هائج، وسحبت شعرها حتى كدت أقطعه كاملا بين أصابعي لولا أن أتت رباب وطرحتني بقوة أرضًا، نهضت، وبدأت ألقي عليهنّ كلّ أنواع الشتائم، سمعت أمي مهزلتنا التي باتت قليلة في الأيام الأخيرة، وصرخت في وجهي كي أسكت، وأحترم أخواتي، فهنّ أكبر منّي.

ارتجف قلبي غضبًا، وصوت أمي يحيط بي، ويدفعني للصّراخ، لم أرَ أمامي حينها سوى خلاء مطبقٍ بالغضب، لماذا لم تسمعني أمي؟ لماذا لم تدعني أشرح لها ما حدث؟ الخطأ ليس خطئي، هي من بدأت أولا، هي من استثار غضبي، هل يجب ألا أدافع عن نفسي لأنها فقط أكبر مني؟ هل يفترض على الصغير تحمُّل ظلم الكبير؟ هل يجب أن أقف مربوطة اللسان، وأسمع رمي سهام الكلمات الجارحة تتقاذف نحوي؟ لا أجيد التصرف في هذا المنزل، ولا أعلم متى سيتوجب أن أتحدث، ومتى أصمت.

ما دمنا نعيش بهذه التربية، وهذه القواعد: أن يطلب من الأصغر أن يسكت ويتخلى عن حقوقه، فكيف به إذا خرج خارج محيط المنزل، سيستمر في ترك الآخرين يسلبونه حقوقه، وهو ساكت، عرفت الآن لماذا نعيش في زمن يتغلب الكبير فيه على الصغير، والغني على الفقير، عرفت لماذا الظلم يغلب والحق يقمع.

أدرك جيدا أنّ من الحكمة أن أكون أكثر هدوءا وحلما، لكن ماذا إذا أخطأ أحدهم بحقّنا؟

الجلسة الثانية

وكأنّ الزمن يعرض عنّي مرة أخرى وتتلاحق المحن؛ لتجرّ خلفي ذيلا من العقد والنفسيات. التقيت اليوم للمرّة الثانية بالدكتورة إيمان، أخبرتها عن تلك الحقوق التي أسلب إياها في المنزل، فإذا بها تقول لي: لابد أن تفلتي من قبضة الحياة القاسية، بتعلم استراتيجية الدفاع عن النفس.

شرحت لي تلك الاستراتيجية التي مفادها التزام الهدوء، وفي الوقت ذاته لا أتنازل عن حقوقي، وهذا لا يعني أن أصرخ وأتشاجر، وأعطي ردات فعل هجومية، بل أتحدث عن حقوقي بنبرة صوت متزنة، وبهدوء دون انفعال، سيكفل ذلك سماعي من الطرف الآخر، وبذلك لن يخرج الحديث عن سياق الموضوع، والأمر الذي أودّ إيضاحه؛ الهدوء دائما يثبت بأننا على حق، وإذا زادت إغاظتي من الطرف الآخر، أحاول أن آخذ نفسًا عميقًا، وأصلّي على الرسول، وأستغفر ربي، ثم ستهدأ نفسي، لابد أن نمتحن قوة الصبر كي نروّض غضبنا، ونستطيع التعايش والانغماس مع كل أنواع الشخصيات.

رحلة الحديث معها لا أرغب أن تنتهي، تولد أغصان السرور في حضن حديثها، أستلذ عذوبة النصائح حين تتلوها عليّ، وكأنها دواء يمسح على جراحي، يقولون إنّ الأطفال تزعجهم كثرة النصائح، وأراني ألتهمها كجائع محروم لأنّها تنطق بحبّ ودفء، دون قسوة ونظرات تحاول سرقة تلك الشخصية المخبئة بداخلنا، دون رغبة لتغييرنا لأجل أعين من حولنا، دون توجيهات مشروطة، وتبعات مقسومة على نظرة فلان أو همسة آخر. النصيحة

حين تأتي بتلك الطريقة المفروضة واجبا، تبدو صادمة، وتدفعنا للعناد، حتى تطفو تلك العلاقة على السطح، فلا نرغب في سماع شيء مهما كان لصالحنا.

في حضورها تندفع التفاصيل من مكنون دواخلي، حكيت لها كيف مضت الأيام، حلوها ومرها، أثنت عليّ كثيرا؛ لأنّني بدأت أستغلّ وقتي جيدًا في الكتابة والقراءة وتنمية مواهبي، فأنا اتبعت كل الخطوات التي أخبرتني بها، وحذوت حذوها بكل إصرار؛ حتى أصبح ملهمة كما وعدتني هي. أصبحت أقلّ غضبًا وأكثر حلمًا، لكن لم أتخلص بعد من إثارة العائلة لأعصابي وإتلافها، أخبرتني الدكتورة أنها ستتحدث مع أمي حول هذا الموضوع، وستساعدني كي تصبح العائلة أكثر تفهمًا لي، وأكثر التفاتًا لحقوقي. بالمناسبة صادف أنّ برجي وبرج الدكتورة إيمان نفس البرج، برج العقرب، رغم أن الدكتورة إيمان لا تؤمن كثيرا بالأبراج، لكني شرحتُ لها عن الموضوع، وسعدت كثيرا أنّنا نملك نفس الشخصية والأسلوب، كنت أعتقد أنها تفهمني بسبب موضوع الأبراج هذا، لكن اتضح لي أنّ الأمر ليس له علاقة بذلك، فهي تفهم الجميع دون استثناء، تمتلك قلبا يحفظ غيب المشاعر ويفهم كل كلمة تخرج من الأفواه، أما الأبراج كما تقول فهي مجرد خزعبلات تسلّينا، ويجب علينا عدم الإيمان بتصريحاتها الواهمة. كانت سعادتي غامرة عندما خرجت من عندها اليوم، للتوّ فقط بدأت أعيش الحياة، ولن أفرط فيها أبدا، نحن نعيش مرة واحدة وحياة واحدة، يجب أن نستغلها جيدا لسعادتنا ولإثبات ذواتنا وتشغيل عقولنا بما ينفعنا وينفع الغير، كلامها رغم أني لا أفهم بعضه كيف سيوصلني لما أريد، إلا أنه يجلب لي السعادة طوعًا، ويلامس كلّ خلية في جسدي كي تتحرك وتتنفس بسعادة.

آمال جديدة

حين تخلق مساحات من الحوار الدافئ، تسمح للحبّ بنيل نصيبه من الوفرة في القلوب، وتفتح منافذ للالتحام الأسري الذي يجلب النفع لكل فرد فيه، حينها تتعاظم الثقة، وتصفو النفوس؛ لتبدو الأرواح كأشجار شامخة بجذور تصل إلى باطن الأرض، فلا يمكن اقتلاعها من منبتها، ولا يمكن لريح أن تهزّ ساقها، هكذا أصبحت وعائلتي؛ لذا لا يمكن لأيّ فرد فينا أن يصبح ذريعة لأيّ تيار من الغضب والفرقة.

حملت إليّ أمواج الحياة المتغيرة الدكتورة إيمان التي أذابت جليد المشاعر بين العائلة، الجميع في المنزل بدأ يتغير، أشعر أنّ هناك أمرًا غريبًا يحدث، أمي تجلس معنا أكثر من المعتاد، ورباب لا تصرخ في وجهي كالسابق، أما عائشة فكانت تتجاهلني وتتحاشى النظر إلى وجهي، منذ عودتنا من عند الدكتورة إيمان أصبح تغيرهم واضحًا، تمتلك سحرًا غريبًا هذه الدكتورة، كيف جعلت العائلة كلها ترضخ لقوانينها الرائعة التي يجب أن تُطبّق في كل منزل، وكل زاوية من هذه الحياة؟ كيف استطاعت أن تجيش صدورهم بالمشاعر؟ كل يوم نجلس ساعة كاملة نتجاذب أطراف الحديث والضحك والنكات، كم كنت أفتقد هذه الأجواء، رباب وعائشة يسمحن لي بالجلوس معهنّ، شعور غريب بدأ يحتضن روح المكان، ومشاعر فضفاضة ازدحمت في قلبي نحو عائلتي، رسمت رسمة

جميلة لي وللعائلة؛ كي أحتفظ بها في دفتر الذكريات، اليوم ازدادت سعادتي؛ لأن ذكريات جاءت مع ابنتها آية، وستجلس معنا مدة يومين كاملين، يا رب اجعل النور لا ينقشع من حولنا، واجعل لمّ شملنا دائما أبدا، سأنام هذه الليلة بأمان الأحلام الجديدة، وآمال المستقبل المشرق.

كوكيز بحبّ

قلوب حمراء ترتسم على عينيك حين ترى التحام أجواء عائلتك، كحقل زهور تتراقص بينها الفراشات، قررت أن أستغل الأجواء الجميلة في المنزل، والروح الملتحمة بيننا، بصنع «كوكيز». ما إن دخلت المطبخ حتى لحقت بي عواشة، تريد مساعدتي دون طلب من أحدهم، وهو أمر غريب، والغريب أيضًا أنّني حاولت أن أعبث كثيرًا معها في المطبخ، لكنها لم تغضب أبدًا، بل كانت تأخذ مشاغباتي على نحو المزاح واللهو، أغراني مشهدها وهي تمثل أمام عيني، تشاركني الحياة، لأول مرة في حياتي أشعر بوجه عواشة وهو ينبض بالحب تجاهي، لأول مرة أشعر بروح الأخوة بيننا. «كوكيز الحب» قررت تسميته؛ لأنّه قلّص الفجوة التي كانت تصرعنا، وعزف على أوتار قلبي مقطوعات من شوق لتلك الأخوة، التي وقفت عند باب الغيرة طويلا، كم تمنيت ألا ينتهي الأمر عند هذا الحد! كنت أريد أن أسألها إن كانت تكرهني، لكني خفت من وقع الجواب على تلك السعادة، التي ارتسمت في قلبي، منذ اليوم سأجتهد كي أقترب منها؛ لأنني متأكدة أنها ستحتاج إلي، وأحتاج إليها في سائر الأيام. الأخت هي قطعة من الأم، وقلب من شجن يضمّنا بومضات الحنان، وكما قرأت من الكتاب الذي أهدتني إيّاه الدكتورة إيمان، الملهم يجب أن يمحو الشرور من قلبه، ويكون متصالحًا مع نفسه ومع الجميع، وهذه الخطوة ستقربني

كي أكون ملهمة وبجدارة، التصالح مع الذات، رغم أني لم أكن أفهمه جيدا لكني الآن أستوعبه بطريقة رهيبة. بدأت أتعامل مع نفسي بنقاء وبرضا وقناعة، بدأت أشعر بحجم النعم من حولي، وأهمية وجودي في منزلي مع عائلتي، تدريجيا باتت تلك الهالة السلبية التي تحيط بي على وشك الاضمحلال، استبدلتها بمشاعر إيجابية، عززت من قيمة الحياة في عيني، ومنحتني الراحة والسكينة، وأيقنت أنّ العائلة هي الحضن الذي سيسترني، ويخاف عليّ، ويحرّرني من المآسي، ويمنحني الحبّ والأمان، مهما واجهتني معهم المشاكل.

زيارة شجيّة

عندما يتحرّر الطفل من القيود يستطيع أن يبدع، ويحلّق عاليًا في سماء الحبور، هذا ما حدث عندي بالضبط عندما بدأ جدول عائلتي يتغير. في كل جمعة نذهب لبيت جدي، ونجلس حتى أذان المغرب ثم نغادر، أخذتني الفرحة إلى أبعد الآفاق حتى انقشعت همومي شيئا فشيئا، فبعد أن كنت أنتظر زيارتهم بفارغ صبري لأكون بعيدة عن جو المنزل الخانق الذي يشدّ على عنقي بغضب، وبكائي كي أجلس بيت جدي أياما طويلة؛ لأنّ والديّ يمنعانني من الذهاب هناك، أصبحت الزيارة أسبوعيا دون خوفي من زمجرة عائلتي القاسية ورفضهم، دون إلحاح طلب وتخطٍ لحدود الأدب، أصبح ذهابنا إلى هناك عادة تشملنا كبقية العائلة، رغم بعد المسافة، فما عدنا نشعر بها، وكأنها انبثاق ضوء برق، نخرج في باكورة الصباح متوجهين نحوهم، أستغل طول المسافة في كتابة فروضي المدرسية حتى لا أشعر بملل الطريق، تتراكض الدقائق وقد أنهيت فروضي المدرسية جميعها ونحن لم نصل بعد، فيثمل قلبي بالسرور، ويمتدّ بصري نحو نافذة السيارة مسترقة النظر إلى تلك اللوائح التي تمهّد لي فرحة الوصول. تعلمت من أحد الكتب التي قرأتها: «إن لم نتسابق مع الزمن، ونقسم وقتنا جيدا، فلن نصل إلى مكان، وسنبقى ندور في حلقة فارغة، ليس لها بداية ولا نهاية». وتعلمت أيضا أن أربط عادة قديمة بعادة

أخرى جديدة أريد تعلمها، كنت أتقاعس عن أداء فروضي المدرسية لأنني أشعر أنها تأخذ من وقت مرحي ولعبي الكثير، لكن ساعدتني أمّي كثيرًا كي أشتغل على فروضي في أوقات معينة تضمن لي وقتا أكثر وأوسع للمرح واللعب، هكذا أصبحت علاماتي المدرسية أفضل حالا في هذا الشهر، وفي المقابل سعادتي لا توصف، أشعر كأنّ الوقت المتاح تغيّر كثيرا عن سابقه، رغم أنّها نفسها 24 ساعة، لكن بتنظيمها أصبحت فائضا.

معلمتي قاسية

من أسماها «ملاك» لا يعي المعنى جيدا، كيف تكون ملاكا وهي تتصرف هكذا؟

لا تحبني أبدا، تحبّ مارية فقط، لا تعلم أنّ مارية منافقة، تتملَّقُها، وتبدو لطيفة وودودة أمام الأساتذة، ثم معنا تظهر شخصيتها الخفيّة المقيتة. لا أحب هذه الشخصيات، أكرهها كثيرا، ولا أعلم لِمَ جميع المعلمين يحبونها! بعض القلوب فطرت على حبّ أحدهم جهلا دون أن يكون هناك سبب واضح، قوة الجذب تلك التي تأخذنا عنوة تجاه شخص ما، لا نستطيع التحكم بها في أوقات كثيرة، لكن هذا لا يعني رفض الجميع والتغافل عن أفعالهم الجيدة؛ لأنّ أمامنا من نحب، أحاول جاهدة أن أتغير وأصبح أفضل، فكما تعرفون: الملهمون يجب أن يكونوا متميزين في تحصيلهم الدراسي، وهذه الأستاذة لا تترك لي المجال كي أصبح من المتميزين، كلما رفعت إصبعي تدعي عدم رؤيتي، فقط ترى مارية، ثم تقول جميعكم بلهاء باستثناء مارية، لا أحد يمتلك الإجابة غيرها، تمتدح مارية حتى تنتهي الحصة، لو تسمح لي بالمحاولة فقط سترى كم أنا ذكية، تنجذب نحو مارية فتشعرنا بالغثيان، حتى تبدو لنا سبورة الفصل ملونة بوجه مارية، عندما قررت ألا أرفع يدي، وبقيت حائرة كيف أجتذبها طلبت مني الإجابة، وكأنّها تعمدت ذلك، لم أكن

منتبهة؛ لذا فأنا لا أمتلك الإجابة، فقد ذهب بي التفكير بعيدا، حينها غضبت عليّ، وجعلتني أقف طوال الحصة، لم تهدأ ثورتي حول موضوع الانجذاب، الذي لا أجد له مبررا كافيا، وبعنفوان الثورة التي نضجت على نار الغضب، قلت لها:

- لو كانت مارية، لن توقفيها طوال الحصة.

طردتني خارج الفصل لأنني تطاولت عليها، أقسم أنّي تحدثت بنبرة هادئة، ولم أتطاول عليها، بل قلت الحقيقة، لكنّها طردتني؛ لأنّ الحقيقة ضربت بخمار وجهها.

لم ينته بالنسبة لي الموضوع عند هذا الحدّ، عندما وصلت إلى المنزل، فورا أخبرت أمي عن تصرف هذه المعلمة، ما دمت على صواب فأنا لست خائفة، من يخطئ هو من يخاف، أمّا السير في الطريق المستقيم فلا بدّ أن يكون بشجاعة وثقة، أخبرت أمي بكل شيء، قررت أمي الذهاب لحلّ الموضوع.

معلمتي ملاك

منذ دخولها الفصل وهي تنظر إليّ وتبتسم، سبحان مغيّر الأحوال، يبدو أن حديث والدتي معها أثمر. كنت أريد التحدّث معها بنفسي لكنّي خشيت أن يزيد الأمر سوءا؛ لذا استعنت بأمي، قررت الانتباه جيدا في حصّتها، كي أثبت لها أنّي متميزة أكثر من مارية، وبالفعل بدأت تنتبه لي، وتجعلني أشارك، استشاطت مارية غضبا، شعرتُ بالنصر والفخر حينها، فورا بعد الحصة جاءتني مارية متعجبة، كيف أصبحت متميزة فجأة؟ بهدوء الثقة والاعتزاز بالذات: «أنا دائما متميزة، لكن المعلمة لم تكن تراني، واليوم بدأت تنتبه لي، ومن اليوم سأصبح أكثر تميّزا».

بدأت تهدأ وتيرة الكبرياء عند مارية، وقرّرت مصادقتي، رحبت بها في مجموعتنا، لم نكن من البداية نرفضها، ولكنّها هي من تشمخ بنفسها علينا، ولا ترغب في مصادقتنا، بل تنظر لنا بطرف عينها، وتتهمنا بالفشل.

الفشل مرتبط ارتباطا وثيقا بعدم تقديرنا لذواتنا، واليوم أنا أقدّر ذاتي كثيرا؛ لذلك لن أبرح حتى أبلغ المجد، عندما تقرّر الوصول لهدف ما، حاول جاهدا أن تتنزع أولًا كل الأشواك التي أمامك، وتمهّد الطريق كي تحظى بأقل العثرات، ولا ترد بطلب مساعدة من يهمه أمرك.

الشعور بالذنب

قد تمر علينا لحظات لا نعرف فيها إن كنا مذنبين أو على وشك الوصول إلى ذنب يفصل بيننا وبين أناس نحبهم. لا نعرف أساسا للمشكلة، ولا نفهم محاورها، لكن كل ما نعرفه أنّ هناك أشخاصا دخلوا في جوفها، وسيخرجون بأجساد وقلوب وأرواح منفصلة متنافرة، جميل أن تكون صريحا، ولكن ثق بأن صراحتك قد تفقدك أحبابك الذين لربما لا يفهمون معنى الوضوح والمصداقية، تمهل؛ كيلا تجعل صراحتك تنحدر لمستوى الوقاحة.

نعيش لحظات من الأسى، تنفصل فيها قلوبنا عن عقولنا، ونذرف دموعا تبقى حائلا بيننا وبين راحتنا، هو ذلك الذي ينبض يسارنا، هو ذلك الذي يوقف تيار الأعصاب من عقولنا كي نسري بجسد بلا روح.

اليوم كان لئيما جارحا، عرفت فيه معنى الخيانة، أعزّ صديقاتي، والأغلى على قلبي، ابنة عمي طلبت مني إعطاءها الرمز السري لحسابي على الإنستغرام، ولأني أثق بها، فهي صديقتي منذ الولادة أعطيتها إياه، ثم ماذا؟ سرقت حسابي دون أدنى شعور بالذنب، سرقته وأنا من تعبت كي تحصل على المتابعين، لم تعترف بذنبها، علمتُ أنها الفاعلة، فلا أحد يعرفه سواها، اتصلت بها مباشرة دون عتاب، تحدّثت بصوت يحمل

مشاعر الغضب، وأنهيت علاقتي بها، فلم يعد لها محل في قلبي. كانت تحاول أن تنجو بفعلتها لكنها كسرتني، ولم تعد أذناي تحتملان سماعها.

لماذا أنا حزينة، هي لا تستحق غضبي، من الصعب العيش في صراع بينك وبين إنسان، كان شيئا غاليا جميلا في حياتك، لا أريد أن يأخذ الأمر أكبر من حجمه، رغم حجمه الكبير، لكني سأعتبره من سفاسف الأمور التي لا داعي لجعلها تنال مني.

وصية

إن قرأتم هذه الوصية فهذا يعني أنني تحت التراب، فادعوا لي بالرحمة والمغفرة، أرجو أن تأخذوا المال الذي في حسابي، وتوزعوه صدقة لأطفال الحروب في فلسطين، وسورية، واليمن؛ فهم يستحقون هذا المال، ومن ثمّ أطلب من الجميع مسامحتي على زلاتي، واعلموا يقينا أني أحبكم جميعا من قلبي مهما غضبت منكم، فهو غضب لحظي وحسب، أما قلبي فلا يحمل إلا الجميل. أتمنى أن تكون عواشة ارتاحت مني ومن دلعي، فقد تركت لها مساحتها الخاصة، سامحيني عواشة؛ لأني أخذت مكانك يوما ما، لم تكن مشيئتي لكنها مشيئة الخالق، نتقاسم المكانة، ونتقاسم الأحاسيس، أعلم بأنه مزعج جدا أن يأتي أحدهم ويستحوذ على مقعدك، تمنيت لو لم تنظري للموضوع من ذلك الجانب، اعلمي يقينا أنّ الأبناء ليسوا كقطع الأثاث، يمكن استبدال قطعة محل أخرى، الأبناء لو كان عددهم ألفا، كلٌّ له مكانته في قلب والديه، حاولت في آخر أيامي مصادقتك، ورأيت كم كنت طيبة معي، ولكن الوقت لم يسعفنا، فالموت لا يحتمل التأجيل حين يحين الأجل، والندم لا يرفع الأجل، ولا يرد القضاء.

أخبروا مريم ابنة عمتي أني سامحتها على خيانتها لي، فلا داعي للبكاء، والقلق من الأمر، لو طلبت مني مساعدتها في عمل حساب، به

متابعون كثر لما بخلت عليها، ولكنها اتبعت الطريق الخطأ، رغم أنها لا تستحق المسامحة إلا أنني أسامحها؛ فروحي صافية، لا أريد تلويثها بالضغينة والحقد، الله غفور رحيم، فكيف بنا نحن البشر لا نتحلى بهاتين الخصلتين، وعسى أن يغفر الله لي ذنوبي بسبب غفراني وعفوي عن جميع من أساء إلي. جدي، آه يا جدي، سامحني رجاءً؛ دائما كنت أقول لك: «مخرّف»، وأضحك على هلوساتك، وحديثك الذاتي الدائم، أحبك كثيرا، وأحب ممازحتك، وليست هناك طريقة لألفت انتباهك سواها. قبّلوا «آية» عني كثيرا، كنت أرغب بشدة أن أصبح صديقتها، وأفهمها وأحميها من أيّ شيء قد يحزنها، كم تمنيت أن أكون عديلة روحها! وأهبها حكم الحياة حتى لا تسقط في مطباتها.

أبي، أمي، أخواتي أحبكم كثيرا، سامحوني، سا محوني، سامحوني، ولا تنسوا أبدا أن تدعوا لي.

محبتكم: مها.

دمار الحروب

وجع يقلص راحتي، يمتص كل سعادتي، ألم بقلبي قد سرى، يخدش مفهوم الحياة في عيني، ويزلزل مضجعي، بالمصادفة في (الإكسبلور) ظهرت إحدى (اليوتيوبرز) السوريات، كانت تبكي بحرقة وألم، حتى وصلت ذبذبات حزنها لقلبي، شوقها لأمها كان ينبثق من شهقاتها وسكناتها، تعيش في بلد مع أختها، أمّا أمها وأخوها الصغير ففي بلد آخر، وأخوها الكبير في بلد ثالث، أما عن والدها فالأمر مفجع جدا، لقد فقد في الحرب، وإلى اليوم هي لا تعرف عنه شيئا، ميت أو حي أو معتقل، كل ذلك في غيب السماء، يا لبشاعة الحروب!

شتات يهزّ البشرية، وخنجر في خاصرة الأمة. تتوالى الإسقاطات، بالأمس فلسطين، همسات الأنين، أحرف المحروقين، ولسان الشهداء، أطفالٌ أيتام، ونساءٌ أرامل، ورجالٌ بلا عنوان، أرضٌ حمراء، وسماءٌ سوداء، ملونة بأغبرة الظلم، ممزوجة بقنابل البطش والجبروت.

تلتها سورية الحرة، صوت شعب مكلوم، ودماء جرح النازحين، وقنابل تدوِّي في كل مكان، أطفال مشردون، ونساء يبطش بها الحنين، ورجال فروا سابحين.

ثم اليمن أصل الحضارة، وموطن العزة والكرامة، ثلة من المتمردين، حزب طاغون، داسوا على أحلام المساكين.

العراق، لبنان، ومصر، وليبيا، وتسقط دولة تلو دولة في الحروب والنزاعات، والضحية أطفال مثلي، تتلون حياتهم بلون الدماء حتى تتشبع قلوبهم قسوة وتمردا، ثم عنف وعنجهية، ثم أفعال مشينة لا أخلاقية. لكم تساءلت في نفسي: لماذا لا يساعدهم الله؟ لماذا لا ينتصر الخير على الشر؟ هل سيأتي يوم وسأكون مكانهم؟ لم أنم قط تلك الليلة، كلما غفوت نهضت جزعة، تتهادى لي أصوات القنابل، ويهيأ لي وجودي وحيدة دون عائلتي، وتتعالى في أذني صرخات نازحة، وطلقات نارية مدوية. ذهبت مسرعة، ودخلت غرفة أمي، والتويت في الفراش بينها وبين والدي، شاجرتني أن أعود لفراشي، لكني رفضت بإصرار، فلا مجال أن يهدأ لي جفن، وأنا أنطوي في غرفتي بين صفحات هذا العالم الجشع. في الصباح كان يوم إجازة، وهددتني والدتي بأنها ستخبر الدكتورة إيمان بنومي معها في الغرفة، فأنا كبيرة على ذلك، لم أكن سأنام معهم لولا خوفي وإحساسي المريب لحظتها، وفي لحظة جزع قررت أن أشبع من حضنهم، فلا أعلم متى سيغير الله الحال، أحسست أني بحاجة ماسة لأحضانهم؛ كي أرتوي حنانا لا ينضب، كيف سأعيش لو غارت بنا الحروب، وتصدع الوطن بالنزاع؟

منبر الخطابة

بكل همتي وعزيمتي وقفت أمام مجموع من الطلبة، في الفسحة المدرسية، وأخبرتهم عن الأمور التي تحدث في البلدان الأخرى، تحدثت بكل ثقة حتى بدأ الطلبة يتفاعلون ويتأثرون بما قلت، شعور بدأ يغزو قلبي مؤخرا، واستوطن حنايا فكري، كيف أساعد أطفال الحروب، تشربت أنفاسي قسوة أيامهم ولياليهم، يجب أن يعرف زملائي عن حالهم؛ كي نتكاتف لمساعدتهم، وبما أننا أطفال فلا سبيل لنا لحمل السلاح والهجرة لنقاتل، فعلينا بسط أيدينا وقلوبنا؛ لنكون مأوى يضم جراحهم. قرّرت أن نقوم بعمل جمعية مصغرة لمساعدتهم، كل أسبوع يدخر فيها كل طالب جزءا من مصروفه، ونرسله إلى هذه الدول، وكل شهر نجمع مجموعة من الألعاب والملابس، وبعض الكماليات التي لا نحتاجها، ونرسلها إليهم. كنت قد رتبت الأمر برمّته، فقد طلبت من والدتي مساعدتي في توصيل هذه الأغراض، ورحبت بالفكرة كثيرا، إذ اتصلت بإحدى الجمعيات، ونسقت معهم، نسجت خطوات من الحرية، تعبر من صفوفنا الدراسية لتصل إلى قلوب أطفال مشردين. وافق الطلبة، وبدأت الحملة بأن يجتمع كل طالب مع طلاب آخرين، ويخبرهم بخطتنا، اقترح أسامة أن نسمي أنفسنا «فريق الخير»، وافقنا على ذلك، لم أخبركم مسبقا عن أسامة، هو زميل لي من نفس قبيلتي، عندما أقول له بأننا من القبيلة نفسها،

وبيننا أنساب من بعيد، يغضب ويشمئز، هو لا يفهم أنني أدرك تماما أنه ليس أحد أبناء عمومتي، ولكن بما أننا من القبيلة نفسها وننحدر من النسب الذي يعود لأحد أجدادنا من الحقب الماضية، إذن نحن عائلة واحدة.

لا يهمّ، المهم أنه في هذا الأمر رقّ قلبه، وتعاون معنا بطريقة جدا مميزة، فبدأ فورا بالعمل على أن يكون فريق الخير أكثر نفعا.

هي سعادة بالغة غمرتني، عندما بدأت بهذا الأمر شعرت فعليا أنني أصبحت أستطيع التأثير على المجتمع بطريقة إيجابية، شعرت بالفخر والاعتزاز بنفسي كثيرا، فهذه الخطوة تحتاج إلى إرادة قوية، لا بدّ أني بالفعل سأكون ملهمة يوم ما.

الجلسة الثالثة

التقيتها للمرة الثالثة، جرعة من الاطمئنان أتجرعها معها كلما قابلتها، وددت لو تمضي الدقائق على مهل، الدكتورة إيمان، عالم يختلف عن عالمنا كثيرا، التعبير عن المشاعر بحضورها ينحدر طواعية بين الشفاه، أخبرتها بكل إنجازاتي خلال الفترة الماضية، ومن كمثلها سيفخر بي، هي رأتني اليوم فتاة حققت هدفها لتتوج كملهمة، فالإنسان الذي يستطيع أن يغير ولو أمرا بسيطا في المجتمع هو إنسان جيد، ملهم وحقيقي، كنت أعتقد أننا جميعنا أناس حقيقيون، ولكنها أثبتت لي مفهوما جديدا فكلنا بشر كما تقول، وفئة منّا فقط تحمل صفة الإنسانية، الإنسان هو الذي يشعر بغيره، ويحاول مساعدة الآخرين دون كلل وتذمر، الإنسان هو من يملك قلبا يرى ما حوله.

ستساعدني على فتح القناة، هكذا ستكون مكافأتي، هذا حلمي منذ زمن، هي تراني اليوم مستعدة لذلك، وكأن ستارا مسدلا انزاح من أمامي، ها هي أحلامي وجدتها في قلب إنسان لم أكن يوما أطمح إلى أن ألتقيه، وجرتني أذيال الصدفة لأجلس معه، وأستمع كمهووسة بكل كلمة تنطقها، أجد أمامها تدليلا سابغا لا تشكمه رقابة، ولا يشوبه التحفظ، طبعا والدي لا يرضى ظهور وجهي أمام الشاشة، لذلك قررنا إقناعه بأنني سأتحدث أمام الشاشة بدون ظهور ملامح وجهي، ستكون قناتي هادفة،

لن أعرض يومياتي، ولن أقتحم بيوت الآخرين، بل سأتحدث عن قضايا مجتمعية تخصنا نحن الأطفال، وشجعتني الدكتورة إيمان على القراءة باعتبارها منفذا عميقا لكل قضايا الحياة، سأقرأ كل شهر كتابا، وأتحدث عنه، طرت فرحا بالفكرة، وكي لا تلهيني القناة عن الدراسة سأكتفي بإنزال موضوعين في الشهر فقط، وهذا قرار بإجماع من عائلتي، أنا سعيدة بحجم السماء فقد بدأت أحلامي تتحقق، وها هي حقيقة التخطيط الجيد ترى النور في حاضري. يجب علينا أن نخطط جيدا كي نرى أحلامنا تتحقق، ولا بدّ من تغيير أنفسنا أولا، ثم تغيير ما حولنا. قبل شهر كنت وسط عائلتي كغصن لا حياة به، يحملقون نحوي كشيطان يخط أفعاله التي لا جدوى منها، دائما في نظرهم مخطئة، ولا أفعل شيئا جيدا بتاتا. وجدتني طفلة حائرة في الطريق، مستاءة حدّ الجنون، أحتاج إلى وجه واحد في هذه الحياة كي يفهمني، واليوم جذبتني قوة خفية إلى ناحية السعادة، جميع أفراد عائلتي يفتخرون بي، هل يوجد أكبر من هذه السعادة؟

أول فيديو

رجائي الحصول على مشاهدات كثيرة بعد فتحي للقناة، أنزلت الفيديو التعريفي بي وبتوجهي، وأهدافي، ياله من هوان محزن جدا؛ إلى الآن لا يوجد سوى 25 مشتركا فقط، وجميعهم أصدقائي وأهلي، قالت لي أمي: لا بأس، لا جدوى من الالتفات لعدد المشتركين، بل يجب أن أضع في الحسبان حجم الاستفادة.

عادت أهدافي إلى مرسى الذاكرة: أنا هدفي من هذه القناة أن أصبح ملهمة، وأفيد غيري، رغم أني أريد أن يعرفني العالم؛ كي أحقق أكبر استفادة، ولكن الأمر سيأتي بالتدريج، سيكون الفيديو القادم بعد أسبوع، وسأتحدث فيه عن فريق الخير.

النوم يناديني، وعيناي تكادان تغلقان أهدابهما قبل أن أغلق هذه المذكرة.

نفق آخر

حملتني أحلامي فوق السحاب، صادعة بأمر مجهول، لم يكن في نيتي الطيران بأهدافي نحو هذا الطريق، لكن الله يسهل سبل الحياة لتتحرك ذرات الكون نحو الصعود بأحلامك. كل ذلك حين يضجّ قلبك بالإصرار، اليوم فاجأتني معلمة اللغة العربية حين أرسلت إحدى الطالبات في طلبي، ذهبت إليها، وكان حديثها ذا شجون، فقد بدأت تحبّني على حدّ قولها لأنني أصبحت مجتهدة، وأمتلك أفكارا تفوق سنّي. كان كلامها كماءٍ بارد يسري في عروقي، طلبت مني المشاركة في مسابقة لفنّ الخطابة تقام سنويًّا على مستوى مدارس المنطقة، ترددت كثيرا، ودون دليل واضح رفضت. لست مستعدة لخوض هذه التجربة، أصرّت المعلمة وأعطتني مجالا كي أفكر وأعطيها الجواب غدا. لا بدّ من إبلاغ والدتي، لعلها تأتيني بالقرار اليقين. كان حماس أمي يفوق تصوّري، لأول مرة أرى حماسها هذا، تراها فرصة ذهبية لا يجدر بي تفويتها، هي فرصة ممتازة إلا أنّي أخاف الفشل، عدم حصولي على مركز متقدم في المسابقة سيهزّ كبريائي، ويلوّن وجهي بالخزي، حينها يتنابني الإحباط الذي سيكسرني بعد هذه الصحوة التي تعلّقت بها، لن أستطيع النهوض مرة أخرى، الآن وجدت نفسي، وأنا سعيدة لما وصلت إليه، وأخاف أن تجعلني هذه الخطوة أفقد ثقتي بنفسي، وأتراجع خطوات للخلف، لذلك سأرفضها، سأعتذر للمعلمة، فأنا لست مستعدة، هذا قراري النهائي، حتى لو شاركت لن أفوز، متأكدة من ذلك، تمايل الشعور هذا يمكّن الرياح المتضاربة أن تتجاذبني، وأخاف أن أسقط في اليأس والخذلان.

الخير ما يخطه اللَّه لنا

ثمّة حقيقة ما ردّدتها كثيرا في قلبي: (مقادير خطواتنا في الحياة بأمر من الله)، عند ذهابي للمدرسة، وقبل طابور الصباح توجّهت مباشرة إلى الأستاذة، وأخبرتها بقراري الذي فكرت فيه بعناية فائقة، طلبت منّي الجلوس قربها، ووضعت يدها على كتفي، قائلة: «تأكدي بأني لم أخترك إلا لأنني واثقة بأنك متميّزة، وستثبتين ذاتك، هذه الفرصة ستحملك عاليا، وترفرف بك في مساحة تنطلقين منها نحو القمّة، الخوف من عدم الفوز في المسابقة أمر لا بد أن يحضر في النفس، فقط كوني على ثقة بأنّ هذه المسابقة لا تحتوي على خاسر، الخاسر الحقيقي هو من لا يغتنم الفرصة، ويبادر بالمشاركة، أتعلمين لماذا؟».

لم أكن أفهم مغزى حديثها، لكني أشعر أنّها فقط تحاول دفعي للمشاركة لا أكثر، لا شكّ بأن كلامها يشعرني بقيمة ذاتي، لكنّي مصرّة على الرفض، سألتها لماذا؟

ردّت عليّ بحماس عالٍ: «في هذه المسابقة يتمّ اختيار المتحدّث المتميّز من كل مدرسة، هذا يعني الجميع متميزون، سواء حصل على مركز أو لم يحصل، وهو لن يخسر، بل سيضيف إلى شخصيته الكثير؛ فالمسابقة في الشهر القادم، وخلال هذا الشهر بأكمله سأقوم بتدريبك، وهو أمر سيكسبك الكثير، ناهيك بأنّ هذه المسابقة ستعرّفك على أطفال

آخرين، ستستفيدين منهم ويستفيدون منك، أنت بدأت تخرجين ما في أعماقك كي تكوني نجمة، والنجمة تأبى إلا أن تسطع في السماء، لا تتلكئي يا ابنتي؛ فثقتي بك جعلتني أصرّ على اختيارك».

هنا وقفت برهة أفكر في كلامها، هي فرصة ستدربني، وأستفيد بالفعل من هذا التدريب؛ لكي أطوّر من نفسي، وحتما هذا سيساعدني كي أظهر في قناتي بطريقة أكثر احترافا، وسأجني فائدة للمستقبل حين ألقي محاضرات، وسأتعرف على أشخاص آخرين من الممكن أن يتابعوني لاحقا على القناة.

وافقت على مضض، والتوتر داخلي يتراقص قلقا من هذا القرار، هل سيرفعني فعلا أم سيدفعني للحضيض؟

حين عدت إلى المنزل أخبرت والدتي بموافقتي، فطلبت بدورها من رباب وكوثر مساعدتي على اختيار الموضوع المناسب، وتدريبي على التحدث بلباقة، لا أحتاج لتدريبهنّ لكن سأبدو منصتة، لربما أجد لديهنّ شيئا جديدا، أحلّق به.

الطموح يقلص الفراغ

الوحدة نار تكوي مداخل السعادة، وتقف أمام باب الأمل، دائما ما كنت أشعر أنّ لدي كثيرًا من الوقت الذي أجلس فيه وحيدة، وأبدأ بعدها بجلب المشاكل؛ كي ألفت الانتباه، وأشعرهم بوجودي الذي لا يشعرون به، بصراخي، ببكائي، بمشاجراتي. واليوم لأنّي قررت النهوض بذاتي فأنا لا أجد وقتا لسفاسف الأمور، جدول يومي مخطط بطريقة مميزة، لا أجد فيها فراغا، أستاء فيه من وحدتي ومن العالم حولي، بل غالبا عندما تصفو لي دقائق بسيطة أشعر بامتنان عظيم لما آلت إليه ساعات يومي. الصّباح في المدرسة، أعود لأنهي واجباتي سريعا، ثم أجلس مع أخواتي، نقضي وقتنا في المزاح، اللعب، الحديث الأخوي الجميل، أو عمل شيء ما معا، ثم أغوص بين صفحات كتاب ما، وأسافر بين أرفف مكتبتي المتواضعة، أرسم، ألوّن، أقرأ القرآن، أو أقوم بشيء يسعدني، ويصنع يومي بحبٍّ وراحة، أحيانا أكون ملتزمة بمذاكرة لاختبار أو نشاط مدرسي، ثم أذهب بعدها لوجبة العشاء التي تستمر طويلا؛ إذ نجتمع جميعنا عليها، فنتبادل أطراف الحديث، ومنها أعود لغرفتي حاملة في صدري حبَّ عائلتي، وفي عقلي كثيرًا من القيم والدروس، وبين جوارحي أطنانًا من السعادة، أبدأ أخطط ليومي، وأكتب مذكراتي، وأستعد للنوم بعد عناء يوم مليء بالأحداث.

في نهاية الأسبوع، يختلف جدولي تماما، فهناك الزيارات، وهناك نادي السباحة، الذي التحقت به مؤخرا، بالإضافة إلى تدريباتي على مسابقة الخطابة، الوقت نحن من يحدّده، ونحن من يسيّر مساره، بإمكاننا أن نجعل أوقاتنا طويلة مملّة، وبإمكاننا جعلها ممتعة، ومليئة بالإنجاز.

فريق الخير

ذهلت من سرعة الزمن وتراكض الأحداث، انهمرت الذكريات لتلك الأيام التي رسمت فيها حظي الجميل الذي أراه اليوم يخطو خطوات لتكتمل اللوحة، لم أكن أبدا أتوقع أن أحصل على كل هذه المشاهدات من هذا الفيديو، في بداية الفيديو تحدثت عن الحروب، والدمار الذي تخلفه، ثم أعلنت عن حملة فريق الخير الذي أسّسته، أنزلت الفيديو في صباح اليوم، اشتغلت مع العائلة في بيت جدّي، وفي طريق عودتنا في السيارة، صرخت أختي عواشة، وفزعنا جميعنا: ما الذي حدث؟ لتخبرنا أنّ الجميع يتحدث عن الفيديو الذي أنزلته في قناتي، أشارت إليه الدكتورة إيمان في حسابها، والجميع بدأ يتناقله، تبادلت عائلتي النظرات في دهشة وعدم تصديق، فتحت بسرعة البرق على القناة، لأجد عدد المشاهدات بلغ 1050 مشاهدة، لم أستوعب الأمر، أضاء وجهي بالبشر، وتنهدت بارتياح هاتفة: أمر عجيب، المشاهدات ارتفعت بسرعة عجيبة. كانت التعليقات الإيجابية تفوق تصوري، من بينها: «طفلة تحدثت عن مئة رجل، متميزة، واثقة من نفسها، إبدااع، يجب أن تعلم العرب معنى الرجولة، تستحق أن تكون دكتورة، تدرِّس في الجامعات.... إلخ».

تفجرت الهتافات داخل السيارة، وتوالت الاتصالات لأمي، وأبي وأخواتي، الكلّ يريد أن يدعم فريق الخير. بالنسبة لي هو حدث تاريخي،

لن أنساه، ولم أكن أتوقعه، الكلمات التي تخرج من القلب تصل إلى القلب، وكلماتي وصلت إلى قلوبهم، قبل آذانهم، هذا ما كنت أطمح إليه، أن يعمّ التأثير الإيجابي، لحظات الفرح تلوّن الحياة بالنور، وتشق الطريق بالورود اليانعة. بهذه المناسبة مرّ والدي على أرقى الكافيهات، واشترى لي قطعة كعك بالشوكولاته، بدأت أستعيد ذكرى التجاهل والتمرّد الذي شملني من حين لآخر، لم أكن أجد من عائلتي إلا غضبًا كاسحًا، يعصف بمشاعري، والآن أنا بين أحضان، وألوان من الاعتزاز والفخر.

القوة في الكلمة، تأثيرها أعمق وأكبر من القوة في الصوت، نحن نجلد بأصواتنا، وحقّ لنا أن نجلد بكلماتنا، فالكلمات مبجّلة، خالدة، تحفِر الذاكرة، وتتعمق في القلوب، حتى تصبح هاجسا يتلاطم في الروح.

المسابقة

قاعة كبيرة بها منصة صغيرة تحوي منبرا، يقف عليه المتسابقون، وبمحاذاته طاولة مستطيلة وثلاثة مقاعد يجلس المحكمون عليها (رجلان وامرأة)، القاعة مقسمة قسمين، نصفها الأيسر للذكور، والأيمن للإناث، عندما وصلنا وجدناهم قد بدؤوا قبلنا، لا أعلم سبب تأخيرنا، ولكن طوال الطريق معلمتي كانت قلقة، بينما كنت كمن حمل جناحين، يرفرف بهما، جلسنا حيث أمرنا أحد المنظمين، هناك طالبة تقف في المنبر، وجهها دائري، وبشرتها حنطية، ترتسم على ملامحها ابتسامة الثقة، تلتفت في كل الاتجاهات، تتحدث وتلقي خطابا بنظرة واثقة، لم أكن أفهم منه شيئا، ما أدركه أنها تتحدث عن الصلاة، ومتأكدة أنّ أحدهم كتب لها الخطاب، وهي لا تفهم معناه، انتهت ووجه الجميع سمح مرتاح لما تحدثت به، قلت لنفسي مخاطبة: يبدو أنّها ستكون الفائزة، لن أدعها تنال مني، وقف طفل بعدها، يرتبك وكأنّ كهرباء تصعق جسده، يهتز الصوت وهو يخرج من حنجرته، تكاد عيناه تغرقان من الدموع، وفي قلبي دعاء له كي يظلّ صامدا ويكمل خطابه، أشفقت عليه، وودت لو أربِّت على كتفيه، وأقول: امضِ دون أن تلتفت لوجوههم، أخرج ما بأعماقك، وانس أنّك في مسابقة، وددت أن يسرع الزمن كي ينتهي قبل أن يغشى عليه، ما هي إلا ثوان حتى أوقفت إحدى المنظمات حبلَ أفكاري وهي تنادي على اسمي؛ كي أقف أمام الدرج الذي

يأخذنا إلى المنصة، فسأكون التالية، قرأت المعوذات كما أخبرتني أمي، وابتسمت كما علمتني معلمتي، ما هي إلا دقائق وحان دوري، وقفت على المنبر، جهّز لي المنظم مكبر الصوت، ورفعه قليلا؛ لأنّ الطالب الذي يسبقني كان أقصر مني، سألني المنظِّم عن الورقة التي سأقرأ منها، أخبرته بأنّي أحفظ جيدًا ما سأقول، ولا أحتاج للورقة، ثم شجعني قائلا: «لا ترتبكي، ستكونين جيدة»، هززت رأسي إيجابًا، وبدأت بالتعريف بنفسي، ثم الخطاب برأسٍ شامخٍ مرفوع:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل العلم حياة للأمم والشعوب، ورواءً للأنفس والقلوب، ومفتاحًا للعطاء والعمل الدؤوب، والصلاة والسلام على معلم البشرية، وخير البرية، محمد بن عبد الله، وعلى صحبه الميامين، ومن اقتفى سنته ووالاه، وبعد:

إليك يا من أنعم الله عليك بالنعم الوفيرة، إليك يا من ميّزه الله بالعقل عن بقية مخلوقاته، والله إنّ النفس لتذوب أسى وحزنا، وتعجز الأنفاس بلوغ الحناجر..

ألقيت الخطاب كاملا بحماسة، كلّ كلمة كانت تخرج من أعماق قلبي، خطاب عن حال العالم المزري، كيف أصبح، حتى وصلت إلى:

أيها الأطفال:

دعونا لا نتعلم ممّن سبقونا الصمتَ المطبق بأحكام الخوف والهلع، فأنا بانتظاركم، كما تنتظر الحروب السلام، بانتظار النّور الذي سيمحو ظلام

البشرية، بانتظار العقول التي ستحرّر الأراضي المستعمرة، بانتظار الشّمس التي ستشرق لبدء عالم جديد، عالم فيه أمثال عمر بن الخطاب، وصلاح الدين...

في هذه العبارات بالذات بدأت تتنافس قطرات من دموعي كي تسقط، رغم أنّي تدربت مسبقا على الخطاب عشرات المرات، لكنّي لم أشعر بمعاني الكلمات وعمقها إلا في المسابقة؛ لأني تحدثت بها بكل جوارحي. كنت أنظر لمعلمتي التي وقفت وهي تنظر للجميع، لأنّها طلبت مني أن أحذف العبارة الأخيرة كاملة، لكنني أعنيها ولست خائفة منها، يجب أن يتعلم الأطفال أن يتحدثوا بصوت الحق.

أنهيت، وصفّق لي الجميع بحرارة، سألني أحد المحكمين، من كتب لك الخطاب، فأجبته: كتبته بنفسي، ولكن معلمتي عدلت فيه الكثير، هنا قال لي، اقتربي مني، ذهبت باتجاهه، وأنا أمسح دموعي، قبّلني على رأسي، وقال: أنت فخرٌ لنا، وستكونين يومًا ما قائدة رائعة، قلت له: شكرًا، هذا من لطفك، لكني أرغب أن أكون ملهمة، ضحك وهو يقول: أنت ملهمة منذ اللحظة، والملهم قائد.

سعادة بالغة التحف بها قلبي اليوم، أفرغت طاقة هائلة، فجّرتها ينابيع ارتسمت على وجوه الجميع في القاعة، سأنتظر النتائج، وأتوقع أن أكون من ضمن الفائزين بحول الله، فرأيت القبول يبلغ عيون الحاضرين، ورأيت أرواحهم تتراقص على سجع الكلمات الملقاة على أسماعهم.

غيرة دانة

وكأنّ الشمس هذا اليوم أرسلت أشعتها لتربطها حول عنقي، قد لا يكون الأمر له علاقة بالشمس، فمنذ بداية اليوم وأنا أشعر بالضيق والكرب، كل الأشياء جاءت معا لتسيطر على المشاعر السلبية وتزحمها حتى تطفو على شكل جزئيات من العصبية والنّكد. فور خروجي من المنزل تركّزت أشعة الشمس لتغرس حرقتها في عيني، لم أستطع فتحها، أخذت نظارة أبي الشمسية التي كان يضعها على طاولة الطعام، وجلست بانتظار سائق الحافلة، تأخر عليّ على غير عادته، ما لبثت أن بدأت بالتذمر، سمعت بوق الحافلة، ركضت مسرعة لأعيد لأبي نظارته، ركبت الحافلة، وصلنا على صوت تحية العلم، فقد بدأ طابور الصباح قبل وصولنا بدقائق، اكتملت كهربة المشاعر بغياب معلم الحصة الأولى، وحتى يأتي معلم الاحتياط جاءتني دانة مكشّرة، عابسة بوجهها؛ لتبدأ تتعالى صرخاتها، متّهمة إياي بسرقة دفترها. لست في مزاج جيد لها، أكدت بأنّي لم أفعلها لكنها مصرّة، تجاهلتها وخرجت من الفصل، فموقد النار في قلبي لا يحتاج زيادة حطب، مكثت أفكر بتصرف دانة، حتى خرجت خلفي غاضبة تبكي، وذهبت للإدارة للإبلاغ عني، جاءت الإدارة لتفتيش أغراضي، والمصيبة أنهم وجدوا دفترها في حقيبتي بالفعل، ماذا أريد بدفترها؟ وكيف وصل؟ المهم بعد طول الشجار والتحقيق، تبين أنّها

من حبك كل ذلك، وتمّ استدعاء ولي أمرها، أعلم جيدا لمَ قامت بذلك، فالغيرة بدأت تشتعل بداخلها، فهي في السنة الماضية من شارك في مسابقة الخطابة، لذلك تشعر بأني أخذت مكانها واستوليت عليه. المعلمة اختارتني، ولست أنا من طلب المشاركة. استحوذ الحزن على مشاعري، لم أصدق أنّ صديقتي دانة تتصرف بهذه الطريقة؛ كيف لها أن تكرهني بعدما كانت تحبني، لا أدري لماذا عندما يصبح الإنسان جيدا يكرهه من حوله؟ يتصيّدون له الهفوات، لا أعلم لم يبلغ الحسد مبلغا يقتل صاحبه؟ يفترض أن يحتفي بي أحبائي، ويكونوا بجانبي. لا أنكر؛ الأساتذة جميعهم الآن يحترمونني على غير عادتهم، حتى عندما أخطئ لا يبادرون بعقابي مباشرة، خاصة أنهم مسبقا كانوا جميعا يخبرونني بأني ذكية، ويجب أن أستغل ذكائي، لذلك هم فخورون بي الآن؛ لأني أصبحت أستغل ذكائي، وشخصيتي القوية، إلا أنّ تصرف دانة مزعج جدا، وهذا ما كنت أخافه؛ أن ينقلب زملائي علي، دانة صديقتي، كان المفترض أن تأتي وتناقشني، لا تحبك لي مكيدة، هل يعقل أن هذه صديقتي دانة؟!

لا تجعل غيرة أصدقائك تتحول إلى حقد

في هدوء الليل المتأخر، مرت صورتها في ذهني فتفجّر قلبي بالشوق. أن تلتقي صديقا وتحتفظ به لألف سنة خير لك من ألف صديق في السنة، أهمّني كثيرا ما حصل مع دانة، وبقيت أتذكر مشاكساتنا معا، وأمد البصر إلى تلك البقعة الوردية من أحاديثنا، ولهو الصِّبا، غادرني النوم بين بكاء وحزن وغضب، ذهبت المدرسة بعيون منتفخة، ووجه شاحب يلاحقني الشعور بالذنب، ما يحلّ لدانة سببه أنا، لم تحضر اليوم للمدرسة، ظللت ساهمة طوال اليوم، أسير أمام الصفوف الدراسية، وتطوف بي دوامة الحياة المتدفقة، هل هي غاضبة مني لهذا الحدّ؟ وهل سنفترق بعد الآن؟ هل اكتسح طوفان الحقد المودّة بيننا؟ أم هي مريضة؟ كلها أسئلة تدور في فكري، ولا أجد لها بصيص إجابة، خطر في بالي أنّ علاقتنا انتهت عند هذا الحدّ، ولا يوجد من يخلص بيننا. غلبني الاكتئاب، ولم أستطع تناول شيء، عدت للمنزل كما ذهبت، أرنو بنظرة الفقدان. سألتني رباب: «ما بك؟». أخبرتها، فردّت دون أن تشعر بذلك الذي يسري في أعماقي: «هي المخطئة، لا ذنب لك، دعيها فتغار حتى تكتفي، المسابقة لم تكتب باسمها، نالت فرصتها السنة الفائتة، والآن الفرصة لغيرها».

هي صديقتي، وأشعر بيني وبين نفسي أن من حقها الشعور بالغيرة، لو كنت مكانها لغضبت، لأكن عادلة قليلا، سينتابني الشعور نفسه. بعد صلاة العصر جاءتني والدتي، العجب أنّها تعرف كل شيء، يبدو أنّ رباب أخبرتها، والحمد

لله أن أمي لم تكن مثل رباب، بل أرادت أن تكون حكم النزاع، وتخرجنا من المعركة بصفاء قلب، فلا يجب عليّ ترك صديقتي في محنتها هذه. كنت أتساءل إن كانت هذه محنة، هي حقا معضلة لدانة، ضاقت عليها. أوصتني والدتي بالاقتراب منها، والطبطبة على مصابها، والتهدئة من غضبها، فاقترحت علي شراء هدية بسيطة لها، والذهاب إلى منزلها، وأن أحدثها عن الأمر حتى تزول العقدة. راق لي رأيها، وبسرعة خاطفة بدلت ملابسي، وأخذتني والدتي إلى منزلها، الحزن مرسوم على تفاصيل وجهها، وكأنّ الزمن ثقل عليها، وأعرضت الحياة عنها. في البداية رفضت رؤيتي، وأخذت تبكي بحرارة، كانت تشعر بالخجل من فعلتها معي، حدثتها قليلا عن الموقف، وسرعان ما اشتبكت قلوبنا لتعود لسابق عهدها، علمت بأنّي سامحتها، وأنّي أقدر شعورها هذا، وسأساعدها كي تشارك في السنة القادمة، وهذه أمور يجب ألا تؤثر على صداقتنا. احتضنتني بفرح، ثم لاح الغفران يضوع عطره في المكان، شكرتني؛ لأنّي اكترثت لأمرها، ولم أتجاهلها وأمضِ، هي في قرارة نفسها تريد لي المشاركة والفوز، لكن ترغب هي الأخرى في المشاركة.

حلت بركات المسامحة المكان، وتعانقت أجسادنا بالأحضان الدافئة، جاءت والدة دانة حاملة في يدها كوبين من الآيسكريم، تناولناهما وقد شدا السرور بأعذب الألحان.

انزاحت الغمامة، ودقت الراحة أوتار قلبي بهدوء، هم انزاح، أغلب النزاعات عند البشر تحدث بسبب سوء الفهم؛ لذلك يجب علينا تداركها، ومناقشة الأمور؛ حتى لا تتأزم أكثر، وتتطور لشجار ومشاحنات.

مهارة السباحة

كحورية بحر أعشق السباحة، أتخيلني سمكة عندما أغوص في الماء، أغيب بمنأى عن العالم، كم سافرت إلى بلدان وبحار. عندما اشتركت في نادي السباحة لم أكن أرغب في تعلم المهارات والأسس، كان جلّ هدفي أن أقضي وقتًا ممتعًا في الماء، هدوء وصفاء وسكينة. ممتع الأمر، للدرجة التي لا يهمني عندها تعلم المهارات، نحن لا نغرق في الأشياء بل نعتمد على ظواهرها. نريد أن نسرق اللحظة وحسب، لا ننظر لأبعد من ذلك، وعندما نتوغل في عمقها نستطعم العيش الحرّ، ونستلذ بالتفاصيل حدّ العطش، لنكتشف مفاهيم أخرى. حين بدأت بتعلم السباحة شيئا فشيئا شعرت بالمتعة أكثر، روح التحدي في إتقان الحركات، الغوص ومنافسة من معي من الزميلات، والمثابرة لتعلم كل المهارات، كان أمرا في حدّ ذاته يفرغ كمية هائلة من الطاقة السلبية، نوبات الضحك التي تنتابنا عندما يغرق أحدهم، أو يخطئ في حركة، أو يتراقص كسمكة خائفة، كان يحفر في الذاكرة نكهات لذيذة، أذكر أول يوم ذهبت فيه إلى النادي، تعرفت على رانيا، كنت أخبرها أنّي أحبّ السباحة، وماهرة فيها جدا، وعلّمتها كيف تمسك بيدها وقدمها على حافة البركة، ثم تدفع نفسها بقوة كبارود خرج من البندقية، الآن أضحك على مها السابقة، كيف اعتقدت بأني ماهرة جدا، ولا أحتاج لأتعلم هذه المهارات الرائعة؟ كيف قرّرت

تدريس رانيا؟ السباحة عالم مختلف كليًّا عما أعرفه سابقا، الآن يمكنني أن أسبح في البحر حتى لو كان هناك موج، لكن أبي لا يسمح لي، فهو لا يزال يخاف عليّ، أتمنى أن أذهب في رحلات لاستكشاف المحيط، أودّ الغوص إلى أعماق البحر، والبحث عن مكنوناته، أريد أن أسابق الأسماك، وأخيف الكائنات البحرية، وعدني والدي حين أنهي دروس السباحة جميعها سيأخذني في رحلة مع إحدى شركات الغوص في عمق البحر، ومشاهدة الكائنات البحرية.

متحمّسة لذلك اليوم، أتخيل وجودي في وسط البحر كبدر في كبد السماء، يجذب الناظرين، ويلهم العاشقين.

نتائج المسابقة

نحنّ للأخبار الجميلة كما يحنّ الليل للشتاء، ويشتاق المسافر للبلاد، وتحنّ الأم لعودة ابنها، نظلّ ننتظر الأخبار المفرحة حتى نرتوي حبّ الوجود. بعد عودتي من المدرسة بالأمس جلست أتناول وجبة الغداء بهدوء وشهية، فعادتي أن أتناول وجبة الغداء، وأذهب لنيل قسط من الراحة دون أن أنتظر أحدا. عودتي باكرا قبل الجميع جعلتني أعتاد على هذا النظام، بعد دقيقة واحدة من غسل يدي، سمعت صوت أمي تدخل المنزل، وهي تصهل بفرح، ركضت نحوها، ونظرت إليها متعجبة، وجاءت عواشة راكضة من غرفتها، ووقفت خلفي، هتفت أمي وهي تقترب لتحضنني: «حصلتِ على المركز الأول في فنّ الخطابة».

توزّعت نظراتي بين أمي وعائشة، بعد صمت قصير، سألتها باستغراب: «من أخبرك؟».

أخبرتنا حينها، بكل حماس، أنّ الأستاذة زينب (صديقتها، مديرة إحدى المدارس في المنطقة) أخبرتها بأني حصلت على المركز الأول في الخطابة، هنا تمسمرتُ في مكاني متعجبة، أمي تحضنني، وعائشة تقفز فرحا. تساءلت في نفسي، لماذا معلمتي لم تخبرني، كان يجب أن تأتيني هي بالخبر، ولم تُلمّح لي بالأمر، أخبرت والدتي بأن المدرسة لم تخبرني بذلك، لتتفاجأ هي أيضا، فالمديرة زينب أخبرتها بأن النتائج أرسلت

للمدارس في أول الصباح، ظننت أنّهم سيخبرونني، وسيحتفلون بي في اليوم التالي.

اليوم هو اليوم الثاني من صدور النتائج، وإلى الآن لم يخبرني أحد في المدرسة بالخبر، لا أتوقع أنّ الخبر لم يصل إليهم حتى الآن، ولا أتصوّر أنّ المعلمة بإمكانها تجاهلي هكذا، هي حتى لم تلمح لي، ولم تبارك!!

احتفِ بنفسك قبل الآخرين

أحاول أن أجادل نفسي كي أسعد بالخبر، الذي لم تزفه إليّ معلمتي، اليوم هو يوم الخميس، حرتُ طويلا، ما الذي وجب عليّ فعله، ثم قرّرت أن أدفن الانتظار في عمق الاحتفال بالفوز، سأحتفل مع عائلتي، ولن أغرق في انتظار المدرسة. في طابور الصباح كنت ساهمة في موضوع الحفلة التي أخطّطها لنفسي، حتى إني خطّطت أن ألبس ذلك الفستان المشمشي الذي يجعلني أبدو جميلة. عبر صوت معلمة اللغة العربية مخيلتي، بل وأذني، وهي تقول: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، رفعت رأسي، ووجدتها بالفعل هي تمسك المكبر الصوتي وتتحدث، أكملت ووجها يشعّ بابتسامة فرح كبيرة: «إنّه لمن دواعي سروري أن أقف هنا اليوم؛ لأبارك لنفسي، وللمدرسة بفوز إحدى طالباتنا المجيدات في مسابقة الخطابة، فقد كانت خير ممثل للمدرسة، فلتتفضل مديرة المدرسة بتكريم الطالبة (مها بنت أيمن...)».

التفتّ يمينا ويسارا، لم أستوعب ماذا تقول، والطالبات يدفعنني للأمام: هيّا تسلمي هديتك، هيّا اذهبي..

كانت مفاجأة رائعة، ولفتة مبهرة من المعلمة أن تقف بنفسها وتبارك لي، وتلقي الخبر بهذه الطريقة الجميلة. علمت الآن أنّها لم تكن تريد أن تخبرني إيّاه مباشرة، بل أرادت أن أتلقى الخبر بفخر أكبر أمام الجميع، أن

أتلقاه بكل إكبار وبهاء نفس، لحظات رائعة، فالأرض لا تتسع لسعادتي، تسلمتُ هديتي بفخر أمام مرأى الجميع، مشيت وسط الطلاب، كموكب متربع الجلال، تتهافت حوله أيادي الملوحين، باعثة شعاع الشموخ والفخار اللذين شيّدا مشاعري.

هو يوم رائع مليء بالاحتفالات، هديتي من المدرسة ساعة يد، وفي المساء احتفلت بي عائلتي، واشترى لي والدي هدية كنت أطلبها منذ زمن؛ هاتفًا خاصًّا بي.

نصيبنا في الحياة سيحين أجله، ولو بعد حين، النية الحسنة، والتوكل على الله، أساس التوفيق.

عندما تريد شيئا بقوة،
ستندفع كلّ قوى العالم لتحقيقه

عند الساعة السادسة فجرا استيقظتُ كما اعتدت أن أستيقظ دائما، على طرقات الباب وصوت أمي، الذي يملأ أرجاء المنزل: «انهضي، لن آتي لإيقاظك مرة أخرى، هيّا بسرعة لتستعدي للمدرسة»، نهضت مسرعة بأقل من ثوانٍ، وبإيحاء من الرغبة، التي بتّ عليها طوال الليل، والتي تختلط عليّ فيها الأحاسيس ما بين نوم ويقظة، حتى لا ينسلّ النوم من بين أجفاني في وقته المحدد، سالبا إيّاي أجمل اللحظات، فلا بدّ أن أكون اليوم في أجمل حلة، وأهبة الاستعداد، للتكريم الذي حظيت به. فور وصولي إلى المدرسة، أخذتنا حافلة أنا ومعلمة اللغة العربية -قبل طابور الصباح- إلى الاحتفال المقام في مديرية التربية والتعليم الخاصة بالمنطقة، حتى ساعات الانتظار لم تقطع عليّ لذّة التنعّم بتخيل صوت المقدم وهو ينطق اسمي، ولم يقطع حبل أفكاري أجواء الاحتفال، وأنا أخطو بخطوات واثقة درجات السلم، لأعتلي منصة التكريم. طوال الوقت هذا ما كان يشغل بالي، اللحظة الرائعة للتكريم التي تخيلتها بأكثر من شكل حتى حانت اللحظة الحقيقة، وتسلمت فيها الجائزة بفم موشح بابتسامة وردية، لم تختفِ حتى بعد جلوسي على مقعد الحضور، احتفال رائع وفخم، وبحضور لفيف من الشخصيات، التي لها صيتها في

المجتمع، بالإضافة إلى الصحافة والإذاعة، وما أسعدني فعلا أنّ الجائزة عبارة عن كاميرا «كانون»! لم أحسب لكل ذلك حسابا، خلال فترة بسيطة جدا حصلت على هدايا عديدة، كل واحدة أفخم من الأخرى، فتاة في مثل سنّي وتحصل على كل ذلك، أنا حقًّا غنية، وأمتلك من الرفاهية ما لا يمتلكه الكبار. في طريق العودة وأنا أنظر إلى الطريق كنت أنصت لذلك الصوت العالق فيَّ: «ستكونين ملهمة». الأمر اليوم لم يقتصر على تلك الهدايا المادية التي أسعدتني، بل يتعداها لطوق النجاة الذي علّق أحلامي فوق موج البحر، ولم يدسها للأسفل لتغرق، ترامى إلى ذهني حجم المكانة التي وصلت إليها، عندما بدأت تكتب الصحافة عن المسابقة أشارت إليّ كفائزة في هذه المسابقة، حينها توالت اللقاءات الصحفية والتلفزيونية، وأصبحت من المشاهير المؤثّرين الذين يشار إليهم بالبنان، لم أكن أتخيل أنّ الأمر سيتحقق بهذه السرعة، وبهذه الطريقة الرائعة، أذيع الخبر في كل أنحاء البلد، يبدو أنّ الأمر كان يحتاج فقط إلى القليل من الإرادة والعزيمة، كان يحتاج إلى الهمة العالية، والمبادرة التي اتخذتها في عالم التغيير، اللهمّ لك الحمد والشكر على كل هذه الأحداث الجميلة، التي بدأت أمرّ بها مؤخرا.

وقفة صراحة مع الذات

هِمتُ على وجهي حاملةً مفاهيم الحياة أمام عيني، قالت لي دانة: أين وصلت بك القناة؟ حينها فقط انتبهت للأمر، فقد مرّت أسابيع، ولم أُنزّل شيئا في قناتي، وبدأت أنساها حقًّا، وكأنّه طيف أحلام عابر، رغم إصراري عليها، هل كان النسيان من عدم أم هو نسيان اللامبالاة؟ لا بدّ أنّ إصراري على فتح القناة نابع من الفراغ والعناد، رغبت فيها بشدّة؛ كي أصبح مشهورة بمحتوى مفيد، واليوم أصبحتُ مشهورة دونها، أصبحت مشهورة بشخصيتي وإنجازاتي. يبدو أنّ هوس الشهرة بدأ بالسيطرة على العالم، وكأنّه طاعون سريع الانتشار، لا نقوى السيطرة عليه، لذلك بدأنا نرى الكثير من الوجوه المضحكة دون هدف أو غاية، في حين أصبحت القضايا التافهة قضايا رأي عام، بينما القضايا المهمة أصبحت كمجلدات عائمة على أرفف الحياة، ودواليب المخازن. لو نفهم فقط مفاهيم الوجود لما رضيت البشرية أنماطا من الهمجية والمجون، يمكننا أن نصبح مشهورين، لكن ليس بالمفهوم الذي اكتسح الأرض بكل ضواحيها، بل بتغيير تصرفاتنا للأفضل، وانتشال ذواتنا من السلبية والتصرفات السيئة. يمكننا أن نفيد غيرنا دون أن نفتح قناة «يوتيوب»، أو «تيك توك». إثبات الذات، وإظهار الروح الجيدة في الشخصية يمكن إبرازه من خلال التوجه نحو الهدف، ليس من خلال اليوتيوب،

والإنستجرام وبقية مواقع التواصل الاجتماعي، قد تكون وسيلة جيدة ومفيدة في عصرنا هذا، إلا أنه ليس الوقت المناسب لي لفتح القناة والاهتمام بها؛ لذلك سأغلقها، فأنا ما زلت أحتاج الكثير من الوقت؛ لأطور وأنمّي نفسي، ويكفي أنّ شهرتي بدأت بمسابقة رائعة، تُوّجتُ فيها بلقب الفائزة عن جدارة واستحقاق.

آخر يوم في المدرسة

نهاية الأشياء هي بداية لأشياء أخرى، اليوم هو آخر يوم في المدرسة، مرحلة عجيبة، مرحلة لم أتخرّج فيها في الصف السادس وحسب، بل تخرجت فيها من الحياة بروح أخرى ومفاهيم جديدة، أضافت لي الكثير، ودّعت زملائي ومعلماتي، لأول مرة أبكي في الوداع، الوداع الذي نقش على جبيني مكانة مرموقة لهذا العام. اعتدت في آخر يوم دراسي أن أحمل المفرقعات، وأفجّرها فرحا، وأشاكس كل من حولي. اليوم كنت هادئة لدرجة الصمت، أودّعهم بدموع غالية، سعيدة بما وصلت إليه، وحزينة خوفا من أن يندثر وينمحي الطموح، وأعود كما كنت سابقا؛ مهملة، غاضبة، فارغة، وحيدة. أمي جاءت لتحملني من المدرسة، فور خروجي طلبت منها أن تأخذني إلى الدكتورة إيمان، ذهبنا إلى مكتبها، احتضنتها بحرارة، وشكرتها حتى فاضت عيناها، فهي السبب والأساس أن أفارق وجه العالم السيئ، وألوذ بالفرار من قبضة الفشل إلى ميدان النجاح. أيدتني والدتي، فهي تكنّ للدكتورة إيمان كل الاحترام والتقدير على ما وصلت إليه، فليس لها الفضل في تغييري أنا وحسب، بل تغيير المنزل بأكمله. سألت نفسي: هل يحتاج الأهل إلى شخص آخر يكون وسيطا بينهم وبين أبنائهم حتى يفهموهم، ويستطيعوا توجيههم بالطريقة المناسبة؟ أعلم أنّ الوالدين بشر، وليسوا ملائكة منزلين من السماء،

فمثلما الدكتورة إيمان تفهم في جانب الشخصيات والنفسيات قد لا تفهم في جانب من جوانب الحياة، وهكذا هم آباؤنا أيضا، لكن هذا لا يعني التوقف عند حدّ المعرفة، بل يفترض أن يجتهد الوالدان ويسعيان للمعرفة لأجل أبنائهما، كما فعلت أمي تماما، فخورة بأمّي أنّها حاولت، وبفضل هذه المحاولة ولدتُ أنا من جديد، وتغيرت لبنة المنزل؛ لتصبح أقوى وأكثر تماسكا، وحبا، ووئاما.

يبدو أنّ لغة القلوب صعبة متشابكة، مرتبكة، لكنّ الفهم أساس لحل أيّ مشكلة في هذه الحياة، مؤمنة إيمانا عميقا أنّنا عندما نحب أحدا ما فيجب أن نحاول فهمه واستيعابه بكل ما يملك من عقد؛ ذلك كي نعيش معه بسعادة، فالحبّ لا يكفي حين يغيب التفاهم.

الإجازة الصيفية

وسط المشاغل نتوه في هذه الحياة، حتّى يبدأ العد التنازلي لتلك الطاقة التي تحركنا، نحتاج حتما لصفاء ذهن وشرود الجسد عن مشاغل الحياة، نحتاج لنزهة لاستعادة الطاقة التي تحمل على أكتافها أحلامنا وآمالنا، وتستوطن بداخلها طموحاتنا وتحديات أيّامنا. اليوم هو أول يوم من أيام الإجازة الصيفية، جمعنا والدي ليختزل عناء عام كامل في رحلة سفر تعيد شحن بطاريات أنفاسنا، ستكون وجهتنا إلى سويسرا (هكذا صرّح أبي) ولا بدّ أن نبدأ بتجهيزات السفر الذي سيكون تماما بعد 11 يوما. هبّت نسائم السرور على ملامحنا، وتوهّجت أعيننا حماسا وانتشاء، كان أكثرنا ابتهاجا عائشة، فهي ترغب في الذهاب إلى سويسرا منذ سنتين. دمي حارّ كما تقول أمي، بعد الاتفاق على التفاصيل كافة أخبرت والدتي أن نذهب للتسوّق من الحماس في تلك اللحظة، فلا سبيل للانتظار، لكنّها رفضت؛ لأنّ رباب وعائشة لم تنتهيا بعد من اختباراتهنّ، لم أرغب أن أحظى بخيبة أمل التجهيز للسفر، فمشاعري متقدة، والأفكار تتضارب، وكأنّي أرى جبال الألب تجثم أمامي ببياض ثلوجها. برعشة السعادة اقترحت عليهم أن نخبر ذكريات لكي تسافر معنا، فرحبوا بالفكرة، واتّصلوا بها فورا، استشارت زوجها، وبعد ساعتين ردّت علينا بأنّها متحمّسة، وستذهب معنا، ياله من استبشار، أوقن بأنّها ستكون من أجمل السفرات على الإطلاق.

سِــرّ طارئ

الحرية، تلك التي نعتقد أنّ معناها يقتصر على أن نفعل ما نريد دون قيود، تلك التي تعلمنا بأنّها تعني الطفولة، اليوم وجدت معناها القديم يتلاشى أمامي، وكأنني في صحراء مترامية، تتجلد فيها أفكاري، وتتوغل بين رمالها مفاهيم الحرية الحقيقية، اليوم الحرية تعني أكثر من مشاجرة والدتي لي عند تركي للصلاة، وأعمق من صراخي وعدم استجابتي لأوامرهم، لم يكن ليتغير شيء لولا حدوث ذلك الطارئ، الذي لم أُلق له بالا، بعد تناول وجبة الغداء مباشرة، شعرت بألم وانتفاخ شديد في معدتي، الألم لا يطاق، تكونت فقاعات ترتطم بجدار معدتي، ثم يتركز الألم أسفل البطن في منطقة الحوض. بكيت من شدة الألم، مسحت أمي على بطني بشكل دائري، وهي تضغط على منطقة السرة وما حولها، شعرت أني أحتاج لدورة المياه، وكأنّ بالونا سينفجر في أسفل منطقة الحوض، ذهبت راكضة لدورة المياه، انخرطت معدتي- إسهال شديد- كان الشعور غريبا، وكأني لم أفرغ شيئا من المعدة، ما زلت أشعر بالامتلاء، أعطتني والدتي دواء مسكنا، ونمت بعدها، ما هي إلا دقائق، وقمت أتلوى، كسمكة أخرجت للتوّ من الماء، أصبت بالرعب حين نظرت إلى فراشي، وبه بقع دماء، لم أتساءل: من أين جاءت، فقد علمت حينها الأمر، ماذا سأفعل الآن، طار بي الخوف إلى أقصى سماواته، كيف سأخبر والدتي، بدأت بنوبة البكاء مجددا،

استحوذ عليّ الإحراج والخجل حتى غلبتني الحيرة، كيف سيُنظَر لي؟ كيف سيكون تعامل أهلي معي؟ ما الأمور الواجبة عليّ؟ ماذا أفعل؟ هل هذا معناه أنّي كبرت لأعلى سقف؟

هو قرار نهائي، لن أخبر أحدا، وأبقي الأمر سرا بيني وبين نفسي، ذهبت فورا وبدّلت ملابسي، ووضعت بعض المنادل الورقية على ملابسي الداخلية، ثم حاولت أن أحضر كوب ماء، وأغسل الفراش به، بقي لون زهري على الفراش، حاولت تغطيته، ثم خرجت وكأنّ شيئا لم يكن. سألتني والدتي: كيف تشعرين؟ فأخبرتها أنّي في تحسّن رغم أنّ بطني لا يزال يؤلمني، وأشعر وكأنّ رضوضا في جسدي بأكمله، كتمت الأمر كيلا تأخذني للمستشفى، جلست مع عائشة ورباب، لم أكن أشعر بالارتياح، نهضت وتوجهت إلى الغرفة راغبة في دخول دورة المياه. مررت بجانب والدتي التي كانت تشتغل على الحاسب الآلي، دخلت الغرفة وكنت على وشك أن أوصد الباب، إلا أنّ والدتي أمسكت مزلاج الباب بيدها، تعجبت، ما بالها؟ لماذا أتت خلفي، استأذنتني بدخول غرفتي، ثم بدأت حديثها الذي يؤكد معرفتها بما حدث، وجدتني أبكي، وكأنه لا سبيل لي غير البكاء، فهمت من نظراتها وحديثها أنّها علمت بالسرّ، تبدو الحياة حلقات من المخاوف والدموع، لكن الأمهات ملاذ آمن، وحضن لا ينضب دفئه لأبنائهنّ، لم ترض أن ترى دمعي الغزير، لذا احتضنتني بفرح، وقالت لي: «مبارك لك عزيزتي، مبارك لك غاليتي، لا يحتاج كل ذلك للبكاء، بالعكس يجب أن تكوني سعيدة، أنا في غاية سعادتي، لقد نضجت

ابنتي، وأصبحت فتاة مسؤولة، يُعتَمد عليها، والآن لا عذر لأخواتك أن يتهامسن من دونك، ولا يشاركنك الحديث». فهمت من كلامها أنهنّ في بعض الأوقات حين يتهامسن، ويتجنبن الحديث بوجودي كان بسبب هذا الموضوع، أردفت حديثها: «الآن أنت مستعدّة جيدا لهذه المرحلة؛ لأنّ شخصيتك تطوّرت كثيرا، وردود أفعالك متزنة جدا». حدّثتني طويلا، وكانت كلّ كلمة تقولها كهمسة ناعمة ترقرق بها قلبي، وكل نصيحة تسبح في فضاء صدري، حاملة الراحة والسكينة، شعرت أنها مرحلة لن تفقدني نفسي وشخصيتي، بل العكس، ستقرّبني من أمي وأخواتي أكثر. أخبرتني أمي أنّها مرحلة جميلة جدا، ثم حدثتني عن بعض التغيرات التي قد ترافقني في هذه المرحلة، كما علمتني بطريقة مسلية وجميلة كيف أحافظ على نظافتي الشخصية، وأنّ أخواتي سيساعدنني في ذلك. استأذنتني كي تخبرهنّ، وقلت لها: «لا أمانع»، فنادت عليهنّ وأخبرتهنّ، احتضنتني عائشة، وقالت لي رباب وهي تحرك يدها كأنّها منتصرة: «أهلا بك يا شابة في مجموعتنا».

حجم القلق الذي انتابني، وحجم الخوف والخجل، استبدلته فورا بسعادة وحماس، اليوم أنا نضجت وكبرت، وأصبحت أكثر وعيا وتفهّما لعائلتي، اليوم أنا قريبة منهم كثيرا جدا. ما زلت أشعر بقلق بسيط بسبب ما سيحدث لي من تغيرات، لكن لا بأس، المهم أنّ الموضوع ليس سيئًا كما كنت أظن، بل أنا متلهّفة لقادم الأيام.

الفتاة الملهمة

كمّية سعادة تدرّ الأدرينالين إلى الدماغ بسرعة فائقة، ها هو موعد السفر يقترب، غدا هو يوم رحلتنا إلى سويسرا، من أجمل متع الحياة، وأفضل فترات الرخاء أن أستعدّ للسفر، وأحزم حقيبتي. أنهيت تجهيز حقيبتي بمساعدة والدتي، ولأول مرة قرّرت أن يرافقني في رحلتي كتاب، سأطير في رحلتي الفعلية إلى أرض مرصّعة الجمال، مكسوّة بكل ألوان الطبيعة الخلابة، وسأطير بالكتاب في الصدى إلى تخوم المعرفة، وضواحي العلم والاطلاع. جلست أبحث عن كتاب مناسب يكون جليسًا لي في سفري، توجّهت لمكتبتي الصغيرة، أفتّش بين كتبها، ما هي إلا ثوان، وسمعت صوت آية تبكي عند باب غرفتي، فاليوم ذكريات وزوجها وابنتهما سينامون عندنا كي نذهب للمطار معا، هرعت مسرعة لفتحِ الباب، آية تبكي عند باب الغرفة، وما يدفع للاستغراب أنّ الأنوار جميعها مغلقة، تساءلت في نفسي، ما الذي يحدث؟

حملت آية وقبّلتها، واعتذرت منها نيابة عمّن وضعها أمام الباب وغادر، هل هذه طريقتهم لدعوتي حتى أتناول وجبة العشاء؟ لا أعلم السبب، لكن أيًّا كان، لا يحقّ لهم العبث معي عن طريق آية، آية عندي خط أحمر، لا أقبل العبث فيه. فتحت باب الغرفة على مصراعيه؛ كي يتسلّل النّور للممرّ، وبدأت أمشي رويدا رويدا باتجاه غرفة الجلوس،

فجأة فزعت من أصواتهم العالية، وهي تهتف معا: «كل عام وأنت بخير» ثم فتحت الأنوار، تقلبت ألوان وجهي، لتبدو عليها كل أنواع المشاعر متمازجة، لم أستوعب المفاجأة بعد، كان المكان مزينا ومنظما بطريقة جدا رائعة وفخمة، كعكة تحمل صورتي، وقد كتب عليها: «مها الملهمة»، حين وقعت عيناي على الكعكة وضعت يدي على فمي، وكل مشاعر السعادة تلقفتني، ميلادي غدا، سيصادف في الطائرة؛ لذلك هم لم ينسوه وتم تقديمه. كان أجمل ميلاد مرّ عليّ، حصلت على هدية جميلة جدا من والديّ (طوق ذهب)، وعباءة من ذكريات، وحذاء من رباب، وأخيرا حقيبة رائعة من عائشة. كانت من أجمل الحفلات، تحدّث فيها كل واحد منهم كيف أنّ هذه السنة صنعتني، وشكلتني بشخصية رائعة، وأنا أشهد بذلك، هي سَنة استثنائيّةٌ بالفعل، لو استمرّت بيَ الحال على ما كنتُ عليه قبل هذه السّنة، لكنتُ شخصيَّةً أُخرى، متأكّدة لو كنتُ كسابق عهدي لتمرّدتُ أكثر وأصبحَتْ شخصيّتي غير مُستساغة، لنبذَني الجميع. لكنّني اليوم أصبحتُ محبوبةً لدى عائلتي لدرجة أنّي أشعر بأنّي صغيرتُهم رغم أنّي كبرتُ كثيرًا، وفي نفسي الآنَ أشعر بأني كبيرة جدا لأتخذ القرارات معهم وأشاركَهم أحاديثهم. كم أشعر بعظمة وجودي وكينونتي متوهّجة جدًّا للحدّ الذي يجعلني أسابق الأيام لأرى مستقبلي وأنا متمركزة في أعلى قمّة الجبل! لقد عانقتُ روحَ التّحدي بلسمًا حتى ارتويتُ ينابيعَ من العطاء. تناديني عائلتي بالملهمة الصغيرة، ومبدعتنا المتألقة، وأرى في نفسي طاقة عالية، وعطاءً متجددًا، غدا سأكمل عامي الحادي عشر،

وأدخل عاما جديدا، وكأني ولدت من جديد، فتاة أخرى غير الطفلة التي أعرفها قبل سنة من الآن، سأطبق كل ما تعلمته خلال هذه السنة المليئة بالإنجاز والعطاء، وسأتعلم أشياء أخرى جديدة تنفعني وتنفع من حولي، اشترت لي والدتي دفترا أكتب فيه خطة متكاملة لعامي الجديد، ستكون خطة مميزة، سأخوض تجارب أخرى جديدة، توقد فتيل الطموح في قلبي. أريد اكتشاف أشياء جديدة في شخصيتي وأطورها، هدفي الآن أن أضيف في كل عام لرصيدي المعرفي والنفسي والاجتماعي والروحي درجات ترتقي بي لسلم النجاح، أنا أثق أني قادرة على ذلك.

شكرا لنفسي، شكرا لعائلتي، شكرا للدكتورة إيمان كثيرا كثيرا كثيرا، شكرا لصديقاتي، شكرا لمعلماتي، وشكرا لكل من صادفتهم، فلم يجمعني الله بكم إلا لتكونوا إضافة لشخصيتي.

تحياتي/ الملهمة الصغيرة (مها).

فهرس المحتويات

المقدمة 5

يوم عن ألف يوم 7
هل كان يجب ضربي؟ 12
وجبة سريعة 14
أصبحت أمًّا 17
درجات الاختبار القصير 19
بيت العائلة 21
أمي تعاندني 23
سوء الفهم 24
شجار كارثي 25
القراءة نجاة 28
عواشة تكرهني 30
الجلسة الثانية 32
آمال جديدة 34
كوكيز بحبّ 36
زيارة شجيّة 38
معلمتي قاسية 40
معلمتي ملاك 42
الشعور بالذنب 43

وصية 45
دمار الحروب 47
منبر الخطابة 49
الجسلة الثالثة 51
أول فيديو 53
نفق آخر 54
الخير ما يخطه الله لنا 55
الطموح يقلص الفراغ 57
فريق الخير 59
المسابقة 61
غيرة دانة 64
لا تجعل غيرة أصدقائك تتحول إلى حقد 66
مهارة السباحة 68
نتائج المسابقة 70
احتفِ بنفسك قبل الآخرين 72
عندما تريد شيئا بقوة، ستندفع كلّ قوى العالم لتحقيقه 74
وقفة صراحة مع الذات 76
آخر يوم في المدرسة 78
الإجازة الصيفية 80
سرّ طارئ 81
الفتاة الملهمة 84